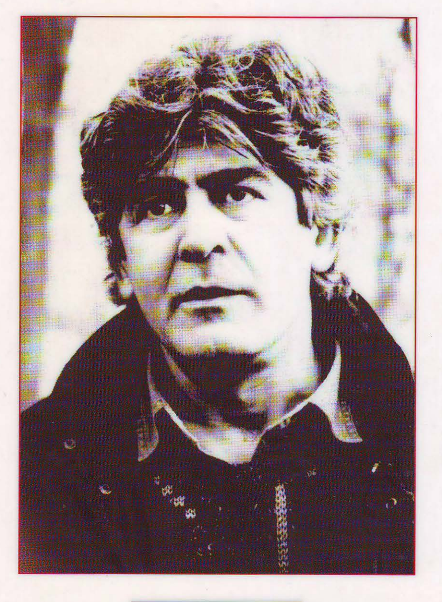
سركون بولص

الأوّل والتّالي



منشورات الجمل

شعر

سركون بولص

الأوّل والتّالي

شعر

منشورات الجمل

ولد **سركون بولص** عام ١٩٤٤، بالقرب من مدينة الحبانية ـ العراق، أقام منذ عام ١٩٦٩ في سان فرانسيسكو ـ الولايات المتحدة الأميركية وتنقل بين دول عديدة، توفي ببرلين عام ٢٠٠٧. صدر له: **الوصول إلى مدينة أين** (منشورات سارق النار، أثينا ١٩٨٥)؛ **الحياة قرب الأكروبول**، دار توبقال، الدار البيضاء ١٩٨٨)، **الأول والتالي** (منشورات الجمل، كولونيا، ١٩٩٢)؛ **حامل الفانوس في ليل الذئاب**، شعر، بيروت ـ كولونيا؛ **إذا كنت في مركب نوح**، شعر، بيروت ـ كولونيا؛ **عظمة أخرى لكلب القبيلة**، شعر، بيروت ـ كولونيا ٢٠٠٨؛ **جبران خليل جبران: النبي** (ترجمة)، بيروت ـ كولونيا ٢٠٠٨. توفي ببرلين ٢٠٠٧.

سركون بولص: الأوّل والتالي، شعر
الطبعة الثانية ٢٠٠٨

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany
Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763
www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

إلى أهلي في أرض الرافدين . .

إلى أحيائي وأمواتي .

«إلى أرض الأحياءِ، تاقَ السيّدُ للسفَر» .

جلجامش

(النص السومري)



سيّدة الظلّ

أن تحيا
من يومٍ إلى يومٍ، يوماً
ليس من الأيام، في سنة ليست من السنين
تسبح نحو شاطئٍ
كلّما اقتربتَ منه، صار ينأى
نحو شيء رأيتهُ
يتقلّب في الظلمة كفانوس مركبٍ
عابر ويشيرُ
أو يشتعل مثل ثقاب
يقاوم الانطفاءَ في مَسْرب الريحِ -
بريقٌ يسري وراء عينيك تستنير به
أشكالُ رؤاك، بانتظار أن تندلع نارٌ في
مُخْمل أمسيةٍ، أن ترى
في وهيجها كيف تأتي
سيّدةُ الظلّ إلى الحديقة ثانيةً

لتشرب مثل غزالةٍ من يديك
لتشرب من يديها نيرانَ رخْمِها الزرقاء ـ
تولدُ الحديقة من خرائب ليلة
بينما جارتك الأرملة لا تكفّ عن الطوافِ
وراء شبّاكها، ساهرةً طوال الليل
مثلك، عيناها
جمْرتان

وأنتَ قارئٌ عنيدٌ، وحيد مع الكلمات
لا يستطيع أن ينام.

زحفتَ إليها في الكهوف، ارتقيتَ الأعالي
نكّستَ من أجلها أعناق لياليك
وتركتَ قرابينك على الأعتاب..

إذا كانت حطباً، كُنْ
لها التنّور، إذا كانت هي النارَ
فأنت الاحتراقُ، إذا كانت الشجرة
ما أنت سوى فأس عاديّة لكنها
لا تكلّ بسرعةٍ
وضرباتها عنيدة.

سِيَرُ البطولات؟

نسيتَها

كتُبُ المؤرخين؟ بعتها بأثمانٍ زهيدة.

على هذا إذاً على هذا

يعتمد الأمرُ الآنَ على هذا

على مدى سُراكُما أنتَ

وهذه الربّة المخبولة

في هذا البحر ومداه حيث تُبلى قواربُ البحّارة

وكم تسخو به عليك من عطاياها

كامرأة مشغولةٍ لها جيشٌ من العشاق:

بغيٌّ تنقادُ تارةً، وطوراً

قدّيسةً تعيشُ خلفَ ستارة

تأتي إليها بما رأيتَ

وما دهاكَ، أينَ كنتَ، لماذا أتيتَ

ومن دعاك...



حلم الطفولة

أيّةُ رغبةٍ كانت تأخذني
من يدي بين الفصول، وماذا يدلُّ خطايَ
على تلك البركة التي اندثرت في بلاد الطفولة
. . .نورُ البساتين وطينُ السواقي
ونسيمٌ يمرّ عليها
في الظهيرةِ -
يمرّ على بركة في الظهيرة
حيثُ ينامُ ثعبانٌ كسولٌ
يحبُّ التمّرغَ في الشمس لساعاتٍ
كنتُ أحيدُ عن طريقي
لأراهُ
يتألقُ وحيداً في عتمةِ الماء
أو يلتفُّ مثلَ مسبحةٍ على تكيةٍ من الصلصال
في قلع بركة تظلُّ رائقةً طالما الثعبانُ ينام، تحت صخرة مائلةٍ
بالقرب من البحيرة. . .

كيف كان يجفلُ من نَومه العميق
كأنما مسَّهُ البرقُ، إذا داعبتُه بغصنٍ أو مسطرةٍ
أو أسقطتُ على ظَهرهِ قلماً أو حَصاة!
هارباً نحو أقصى الزوايا
كزوبعة تمشّطُ القاع، وتجعلُ الشمسَ تختفي
من البركة
عندما يرتجُّ لمروره الماءُ، عندما يستيقظُ الطينُ
وتسري حالمةً، في إثره، الأوشاب.

وأذكر صقْراً كان يطيرُ
حاملا بين مخالبه سمكةً ما زالت تحاولُ الإفلات.

حلمُ أبي

رأى أبي في حُلمهِ
كما يرى النائمُ، ذاتَ ليلة
قديّساً يملأُ الباب بقامته الوضيئة
له عينانِ من الجمر تدعوانه في الظلام
كلّمهُ
لكن بصوت آمرِ
بصوتِ واثق من الطاعة
في دعوةٍ أو خطَبٍ، أو ربّما في مهمّة..

ثم ذابت هيئتُه في عيني أبي
وغاب القدّيسُ كآثار نجمٍ صاعدٍ، باتجاه الجنّة.

في الصباح الباكر وأوّلُ دُوريٍّ
ينفضُ عن جناحيه قطرةَ الندى الأولى
والنملةُ تسحبُ أوّلَ نواةٍ على الحصى المُطرّاة بالخطى

في أزقّة القرية، تبعتُ أبي لنطرقَ على أبوابها
باباً بعد بابٍ، يفتح لنا عمّالٌ حفاةٌ، نساءٌ
ثاكلات أو حُبالى، أطفالٌ في عيونهم رمدٌ، شيوخٌ
راجفون في الزوايا، وخلف أستار المطابخ
أطيافُ عذارى. . .
يروي حلمَهُ مجنّحاً، مجنّحاً بالدُّعاء
يرويه وهو يلفُّ سجائرَه بوجهِ عائدٍ من الحربِ
يحدّقُ بدهشةٍ في ساقه المبتورة. . .

نسيَ أن يحلقَ لأيّام
وكان عاطلاً عن العمل طيلةَ التاريخ
وفي يديه اللتين لم تعرفا سوى نحيب المطرقة
عندما تسوقُ مساميرَها السودَ في قلب الخشب
كان يداعبُ مسبحةً لا تنتهي
ويرى شتاءاتٍ، شتاءاتٍ
يرى شتاءاتٍ تدحرجُ عرباتٍ بركّابها إلى الوديان
حيثُ تختفي متبوعةً بنجمةٍ أفلتت من مدارها
وحشدٍ من الذئاب الهزيلةِ
تسعى نحو المكان.

وكلّما روى حلمَهُ الأليف، قدّموا لهُ
الهدايا، حتّى امتلأ المساءُ بالقرابين للقدّيس والفُقراءِ والموتى
بالأرز والشاي وأرغفة الشعير، بالملح والزيتون
والأعشاب الشافية
حتى انطلقنا تحتَ السماء حتى انطلقنا
على ظهره كيسٌ من الجُوت، كيسٌ من الجُوت
على ظهره كيسٌ من الجُوت
أثقلتْهُ تلكَ الهدايا. .

حتى حفظتُ الحلمَ كأنّهُ حُلمي
وكنتُ أحملُ الكيسَ على ظهري عندما يُبركهُ التعب.

نهار في كركوك

الأيقارُ النائمةُ في ظلّ المَضْفى
لتمخضَ الحليب، تجترُّ العاقولَ والأشواك
والغربانُ تدنو من بئرنا
المسوّرة بشظايا القناني
على أطرافِ أجنحةٍ ذليلة
كأنّها هدايا
من القار والمازوت
قذفتْ بها
من احشائها المحروقةِ، «الآبار»
حيثُ تمتدُّ متاهةٌ فضيّة من الأنابيب
ويرتفعُ اللهيبُ من حقولِ «الآي بي سي» ليلَ نهار.

هناكَ تتمرّغُ الشمسُ على ظَهرها
في زجاج نافذةٍ غَبراء

سمكةً تلفظُ أنفاسها الأخيرة

هناكَ يبدو العالمُ كمركبِ نوح القديم إذ يودّعُ آخرَ الضفاف ـ
قد تنسلُّ امرأةٌ
لِصقَ سياجٍ حاملةً شيئاً من أحدِ البيوت
صينيّةً مغطّاةً بمنشفةٍ نظيفة تطفو بين يديها
المصبوغتين بالحنّاء، كطيفٍ سابغٍ
يعجنُ نعلاهُ الغبارَ لكنّها
لن تكسرَ السَّكينة. .

جسَدُ الأفعى
المتسربلُ حول بتلة الخَشْخاش
القرمزيّةِ الدّرَنات بارتخاءٍ، وراءَ دكّان
الأرمنيّ السادر في نومة القيلولة ـ
رأسُه الأشيبُ على دفتر الديون
عويناتُه الطبيّة في كفّة الميزان ـ
وحدَهُ، وحدَهُ كزُنّارٍ حيٍّ من الخرَز الملوّنةِ يزيّنُ غُرّةَ
الظهيرة
والصمتُ أعمقُ من بئرٍ

في هذا الطرَف النائي من المدينة . .
الكلابُ تشمُّ الطناجرَ بلباقةٍ
في ظلال الجدران، والحنفيّةُ المُزَنْجرة
ترشحُ بصبرٍ في فنجانٍ مكسورٍ، قطرةً بعد قطرة

إبنُ العامل والدُوريّ

حيثُ تعيشُ عوائلُ عُمّالٍ
في أطرافِ معسكرِ تدريبِ
ويحومُ جنودٌ
تحت سَحاباتِ غبارِ
خلفَ السكّة
كانَ يسيرُ
إلى التلّةِ في الظُهْرِ ويُصغي
لأنين الريحِ إذا جاءت مُحْرِقةَ الأنفاس ووالهةً
في آب اللهّاب. . .

ينتفشُ الريشُ لها
في جُثّةِ دوريّ مشتبكٍ بالأسلاك ـ
تَتلوْلبُ فيها خِرَقٌ،
ألياف جَريدٍ
وجرائدُ عرّاها

الطقسُ من الكلماتِ ولم تبقَ سوى
لطَخاتٌ شاحبةٌ من صوَر القائد
بالزِنْكوغراف
ما زالت تضحكُ مستبشرةً
في الصفَحات الأولى
بين هياكلَ جرّاراتٍ تقطرُ صدأً
وبقايا أمتعةٍ وقناني
تفترشُ التلّة: ـ
بسطالٌ
من دون سُيورٍ، مسمارٌ
لا يصلحُ حتّى للصَلْبِ، وغربانٌ متخَمةٌ
تنعقُ بين حُطامِ مراكبَ لم تنْجحُ من الطُوفان ـ

إبنُ العامل والدوريُّ المتربُ وحدهما
الآنَ، على التّلة..

إبنُ العامل والدوريُ وآبْ.

طفلٌ تحت جدار

الطفلُ يؤُرجحُ غُصناً
من أغصان التُوتِ لقاءَ حواجبهِ
في كسَلٍ بالقربِ من التنور، ويدفنُ أحياناً
في أوراقهِ عينيهِ
أضعفَ من أن يتحمّلَ أعيُنَهم،
هذا الجَمْعَ من الجيرانِ على الأسوارِ
كمجموعةِ من غربانٍ، أوسمةَ الشرطة. .
وأبوهُ
في بيجامتهِ
في الباحةِ، يُجلَدُ بالكرْباج.

حادثٌ في قريةٍ جبليّة

فَجأةً يُستفَزُّ الهواءُ
ويرتجفُ الليلُ في الشجَرةْ

ثمَ نُصغي
لعاصفةٍ من رفيفٍ

لأجنحةٍ تتعالى
بآلافِها في الظلام:

العصافيرُ تهربُ من صخرةٍ
سقَطت في فمِ البئرِ

من عُلْيِها...

رقصةُ الديك الأثير

خطوةٌ واحدة والبيتُ
ينهارُ، تنكسرُ البيضةُ الملْساء
ويندلقُ الجنينُ على الرصيفِ، بين الشارع والباب.
خطوةٌ بين السجن والحرّية، عرَفنا أنّها مجرّد خطوة
عندما عاد جارُنا النجّارُ من المعتقل النائي
في الصحراء ذات نهارٍ، عندما عاد
ملتحياً مثل نبيٍّ
حتّى العينين، لا ينبسُ بكلْمةٍ وهو يتلقّى
تهانيء الزوّار، بل يكتفي
بالإيماء السلبيّ إلى السجّادة
أو السقْف أو الشُبّاك
كأنّهم مُعزّون، مثلهُ، في جنازة...

متى حدثَ الكَسْرُ، وأينَ
في أيّ الأضلاع؟ كيفَ

تدفّق شلاّلُ الضغينة،

والقَهْر.. من أيّة صخرة.

ربّما كانت الشمس، ربّما كانت

نِبالُها المتشظّيةُ في العُيون

وهيجُها القاسي على مواسير البنادق

والأزرار النحاسيّة

وجلجلةُ الموكب الذي

يعبرُ صاخباً أمامَ الدار

للاحتفال بذكرى الثورة؟ ربّما كانَ حاملُ الصولجان

(ضفدعٌ مُنَيْشَنٌ، منتفخ الأوداج

يتقدّمُ المسيرةَ وهو يقلّدُ مشيْةَ الطاووس) هو المسؤول...

ربّما. لكنه بدأ بالكؤوس، حطّم فناجينَ الشاي

هاجمَ برأسه الخِزانةَ ذات المرايا!

حتّى وقعت عيناهُ على «الزمّار» ديكه الأثير

منتفشاً بأمجاده الوهميّة في ركنه المعتاد

ومنذ تلك اللحظةِ لم يَعُدْ يحْتار...

منذ تلك اللحظة لم يعد يحتارُ بل أفْردَ جناحيهِ

بعد أن استدرجهُ إليهِ

بقوةٍ إلى الوراء

وحَزّ رأسه اللاهبَ الألوان بمنشار
سوى أنّه أفلتهُ، لعلّةٍ ما، في اللحظة الأخيرة.
أفْلتهُ لعلّةٍ ما في اللحظة الأخيرةِ وطار الديكُ
من يديهِ
نافورةً مُدَرْوِشةً من الدماء، طار الزمّارُ ليصفعَ
بجناحِ احتضاره حاملَ الصولجان أوّلاً،
في وجهه المرفوعِ إلى الأعلى
بحثاً عن عَصاهُ التي تطيرُ، وينتهي
راقصاً على أكتاف السائرينَ في المسيرة
ووالغاً أخيراً في التُراب
ناثراً دماءَهُ الساخنةَ على قُبَعات الشرطة
وبذْلاتِ الجنود
وثيابِ الأطفالِ البيضاء...

أسطورة السيّاب والغِرْيَن

عرَفَ السيّابُ منذ البداية
أنّ الأشياءَ التي يمكن أن نحبّها، قليلة
وجهٌ
يُشرق مثلَ رغيفٍ
مِن تحت الأطمار في مَهْده الصغير
بضعُ نساءٍ لهنّ حنانُ المرضعاتِ
في الأساطير، وقبضةٌ من الغِرْيَن البليلِ كذاكرة
الطُوفان ظلّت تلاحقهُ
من شقوق ذكراهُ
والنوافذ التي رآها
وانفتحت له في الطفولة، غنّى لها، غنّى
غنّى لها حتى في حريق انتظارهِ
على أسرّة المستشفياتِ
البعيدة عن ماءٍ

العراق، وتوسّل من أجلها حتّى
حتّى إلى طين السواقي...

عرَفَ السيّابُ منذ البداية
أنّ القَدَمَ الحافية لن تسيرَ إلاّ
إلى معتقلٍ أو مقتلةٍ، والفقْرَ هو الشيطان
طالما كان هذا العالم في بؤسه وبهائه
مأدُبةً للآخرينَ
تُقامُ باسمنا في كلّ مكانٍ
ليسطو عليها البرابرة، والغدُ غابةً
لا تورقُ إلا على صيحات ذئابها
وكان كلّما كتب قصيدة
هبط المستشفى
إلى الهاوية..

حتّى إذا أتاهُ
الليلُ الخَدومُ بهالة الأبديّة
وتعرّى الموتُ لهُ

كراقصةٍ بلا وجهٍ في حانةِ التراب الأخيرة
دارت جَيْكورُ في نهر دمائه بطينها وأفيائها مرّةً أخرى
ورأى اللهَ يستريحُ
في قاع بُوَيب.

يونس وبئر الأرملة

من وراء السدّة العالية لسكّة الحديد
كان يظهر بلحيته الكثيفة شاردَ العينين في كل النواحي
متنقّلاً بهما بين العصفور الذي يرفرف فوق تلّة من الفضلات
قرب عربة القطار التي تصدأ في الشمس
إلى طارمة المقهى التي يجلس فيها شيوخ المحلّة
أمام السكّة مباشرةً، يرصدونه بعيون ذئبيّة مليئة بالغيرة.

بعيون ذئبيّة مليئة بالغيرة، وأيدٍ ما زالت طافيةً في الهواء
تحمل الزار عالياً فوق الطاولة، سمّرها الفضول كالشراع إذا ملأته
ريحٌ واعدة بالبحر.

يعرفون أنّه كان يزورُ الأرملة ذات البيت الكبير المغطّى بالعرائش
الغبراء، في الطرف الآخر من السكّة، مرّة أخرى.
بيت الأرملة الذي لا يطأ عتبته من كان، ولم يروا أحداً، ذات يوم
يجتاز تلك العتبة..

يتابعون كلّ حركة من حركات البهلول، الذي يحظى وحده من بين الجميع، هو المعتوه رسمياً في عرف الجميع، بالدخول إلى بيت الأرملة بحجّة البَستنة أو حمل المؤونة، أو تنظيف البئر الوهميّة في نهاية الحديقة.

«منعول الوالدين!» كانوا يتمتمون بإعجاب شرس ما أن يقترب يونس من منطقة الفيء حيث يجلسون، إلى أن يعالجه نزّاح الآبار المتقاعد بلهجة قانطة بقدر ما هي متواطئة، كأنه يُكمل حديثاً شيّقاً تَبودِل بينهما منذ زمن بعيد بينما يشعل سيجارته بمقدحةٍ أثريّة لها فتيلة برتقالية طويلة كساق مالك الحزين:

«ها سيّدنا يونس، وكم مرّة دنْدلتَ حبلك اليوم، بإذن الله، في بئر الأرملة؟»

الجدُّ يبدأ بالطواف

لا أحدَ يدري متى
بدأ الجدّ بالطواف، لا أحد يدري
لماذا بدأ الجدّ يذرع الطرقات، باكراً
كصيحة الديك قبلَ السُحور، باكراً كما في شبابه
عندما كان يصلّح الساعات في إحدى المُدن الشماليّة
كأنه يجسّ الآن نبضَ العاصمة السريع
ويطويها برجليهِ، متجليّاً، حارةً فحارة.

بماذا كان العجوز يفكّر وهو يمشي
تائهاً كالظلّ في أحشاء المدينة، يداهُ
خلف ظهره تداعبان بلا توقّف حبّاتِ الكهْرمان
في مسبحته الأثريّة، ونعلهُ الأغبر الخفيف
يصفعُ وجوهَ الأرصفة الساخنة الأسفلت بهمّةٍ
في الصباح والظهيرة، أو يحرث تراب الأزقّة
عائداً محدودب الظهر قبل حلول الظلام؟

كم من السنين والآلام ظلت تدكّ قلبه كالبحر
حتى انهارت السدّة أمام الأمواج؟
بين ماضٍ لا يريدُ
الزوالَ، ومستقبل قد لا يأتي
هل كان يغذّي بحبّه تلكَ اللحظاتِ التي اندثرت ليحيا
من خلاله الأموات؟
ويُخرس المتسائلين بقولهِ
أنّ الزمانَ يجري كالمعتاد
حتى إذا تعطّلتِ
الساعات.

بحُميّا لا تعرف الإنطفاء
وعينين غائمتين لمستكشفٍ
لا يعرفُ الكلال، يمرّ بأوّل مصلٍّ
يتوضأُ أمام حنفية المسجد القريب
والفجرُ مسفوحٌ على بلاطهِ البليل حيث الحمامُ يشربُ الماء
ويحادثُ صيّاداً على طوار المقاهي في ضفاف دجلة . .
يُفرغ قاربَهُ من الأسماك
أو نادلاً يدخّنُ في باب حانة . .
أحياناً يهاجمهُ كلبٌ صغير من مدخل أحد البيوت

وقد أعماهُ الغضبُ لسببٍ من الأسباب
في أزقّة خلويّةٍ لا يعرفُ أينَ
تقودُ، أو بعيداً
بين صرائف المهاجرينَ
حيث يبدأ العراءُ
على أطراف معسكرات الجنود.

هناكَ تحدثُ له أشياء
ويتبعُ التواءاتِ الصدفة كأنّها إلهام
خصوصاً بعد التقائه بالعديد من أهل الجبال، في محلّةٍ
من المحلاّت، فحيّاهم وتبادلوا الكلام: امرأةٌ
كانت تعرف زوجتهُ، رجلٌ
هاجر حديثاً من مدينته، أو أحد الأصدقاء.
وإذا ما وافاهُ يوماً جارٌ أو قريبٌ
فهو عيدٌ من الأعياد..

مفتاحُ البيت

حَلَم رجلٌ
أنّهُ يغادرُ مدينتَهُ
ذات نهارٍ في عاصفةٍ تنحني لها الحقولُ
وتنهضُ لمقْدَمها أعمدةٌ
يغزلها أمام قدميهِ التراب
على حدود قريةٍ
تركبُ حافّةَ الريح . .

حلم رجلٌ أنَّ امرأةً
تحمل طفلاً بين ذراعيها غنّتْ لهُ
أُغنيةً كان يعرفها منذ طفولتهِ
ظلَّ يردّدها لنفسه وهو يقطعُ الصحراءَ
كأنها ينبوعُه الوحيد . .

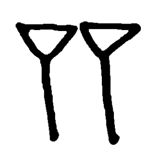
لكنّ صوتاً

في وسط الحلم أنذرهُ
وانسكبت ظلمةٌ مفاجئةٌ على البراري.
حلّق طائرٌ
من أحضان شجْرةٍ
ظلّ غصنها المهجور يوميء في الهواء ـ
زادَ السكونُ
حتى سمعَ الزمانَ ينسلُّ على أطرافِ بستانٍ
يابس الأشجار بخفّة الثعلب أو القطاة
واهتزّ أديمُ الماء عندما انحنى
ليشرب، ظامئاً، عليهِ..

أخذ النهرُ
بعضاً من قسماته في دوائرهِ
وانتشلَ هو، الآنَ، براحته البقايا
متعجّلاً فالشمس مائلةٌ
والعالمُ يستدرجُ ضياءها الباقي
كنافذةٍ سحريّةٍ
تُطلُّ على الحدودِ
حيثُ كان يحلمُ بأن يسيرَ، وسارَ.

قبل أن يُناديه أحدٌ
تلفّتَ واستدارَ؛ بقيتْ حقيبتهُ في الطريق.
من يدهِ التي انتفضتْ
وجرّحها
بالشيء الوحيد الذي في يدهِ: مفتاحِ بيت أبيه
بدأت قطراتٌ من دمهِ
تنهمرُ ساخنةً في التراب.

هذا هو الحدّ ـ
هنا تنتهي طريقُكَ الأولى..
إفركْ عينيك المليئتين بالغبار وإذا أنتَ تمشي
في بلاد الآخرين.



رؤيا المجرى

في قاع جسده كان ظلامٌ يقدحُ أحجارَهُ من آنٍ لآن
لينير أرضاً كسيرة، كلما أغمضَ عينيه يراها
كلّما أغمض عينيه لينام.
ويفتحهما على آثار حريقِ
في الصباح، كالوشْمِ على جدران جبينه
والشراراتِ الخُضر التي تفرزها الأمواج
ويصعد على هَذْيها غوّاصٌ إلى السطحِ، من القاع..
آنذاك كان يبقى
طافياً بلا حراكٍ
بين النوم واليَقظة
ليُمسك بالصورة في انجرافها
ويعرّضَ وجهَه للشرارة
فيرى أنّ الأشياء
غارقةٌ في حوارها الأليف
تستوطن تيّارها الخافي عليهِ

تجري نائمةً وقد ترمي
بما فيها لسببٍ مجهولٍ فجأةً
إلى هاوية ملأى، وتسبحُ فيها
على شكل أشلاء.
تسبح عبر يديه الباحثتين ليستجلي على مهله مسارَها الأعمى
في مكانه، في مكانه حيث يحلم..
ويفهمُ، بانخطافةٍ سريعة، أنّ كلّ ما رآه
في لحظة رؤيته له، كان يولدُ حطاماً، وينبني من الحطام.
ثم التحم الليل بكامله، مزوّداً بحشدٍ من نجومه، حول يديهِ
مثل كيانٍ مضيء في عالم من الأشياء
وكان يمشي في الطريق
كان يمشي على جانبيه أغصانٌ تميلُ
حين رأى طيفاً ينهض من مصطبةٍ كأنه كان يستلقي
منذ آمادٍ بانتظاره هناك
وقد عِيلَ صبرهُ إذ توجّه نحوه الآن
يغمره الفجرُ الذي يقدحُ الأغصانَ بلهيبهِ
كأنّها أعواد ثقاب..
لكنّ الرجُلين سارا
في اتّجاهين مغايرين، دون أن يتلاقيا، في اللحظة الأخيرة.

كنز الشمردل

. . أن تعرف كفايتَك من الألم في هذا العالم العنيد، وأنّك
كنت تغذّي أسطورته بكلّ بيت تكتبه كأنّه حجرُ الفتيلة.

عنيدٌ، قُدَّ من صخرٍ باعُهُ
ولسوف يطالُ كلّ فعل وإشارة

لكي تّهيئ الضلعَ المرشّح للطعنة. .
لأن هذا وحدَه هو كنز الشَمَرْدَل، هذه شهرزاد وهذا
مهِبَلُ القصّة.

أسطورةٌ مكحولة بغبار الكهوف حيث وظّفوا العميانَ في أقسام
الجراحة، وكلّفوا الحمقى بتوزيع الآلام. .

اليومَ ملِكٌ، وغداً
شحّاذٌ يغنّي في نفَق المحطة:

لأَنك إن لم تَذْرِ، لأنك إن لم تفعل، وتملّصتَ بطريقةٍ ما
عن تكبُّد أيّة خسائر، فادحةً كانت أم تافهة، قد تنجمُ عن فعلك
هذا
فإنّك ستكون بالضرورة
قد سقطتَ إلى درجةٍ أدنى، لم تَعُد في مصاف الأحياء

تقاعستَ عن أَداء المهمّة بحذافيرها
لن تنعش جلدَك الملتهب نسمةُ البَرد المباركة

فأنتَ لم تذقْ طعمَ الثَمرة المُرّة.
هكذا تكون قد تخليّت عن الحق، لم تعد جديراً (لم يعد مؤكَّداً
بماذا!)

ولئن كان صيدُك ما زال يربو، فانَّ لآلئك كلّها زائفة.
لقد فشلت يا هذا، ورسبت في الامتحان.

الاسم

«على الذين أضاعوا أسماءهم، فلنعلن البكاء»

قول آشوري

يذهبُ الكلُّ ولكنّه يبقى:
الاسمُ..
عزفاً صامتاً في آخر النسيانِ
يبْلى بمرور الوقتِ
لكنّه يبقى.
كلما خُيّل لي
أنه لن يأتي، أتاني؛
بلا رِجلينِ
لكنّه يأتي.

مرّةً في قرية مقفرةٍ
حتّى من الظلّ (فلا شمسَ!)
لها مقهى شتائيٌّ، وكلبٌ

واحدٌ يبحثُ عن سيّدهِ
في قريةٍ
بين جبال الألْب..
في تلك الأعالي!
(كيف، لا أدري.
ولكن من زمانٍ، من زمانْ)..

مرّةً بين صحارى القُطْب
حيث الشمسُ لا تشرق إلاّ باقتصادٍ
وبياضُ اللانهايات وديعٌ مثل إعلانٍ
وحتّى الثلجُ
يُستثمَر كالرأسمالِ
في قرية سيّاحٍ نيامٍ
أو مجانينَ يدبّون بزلاّجاتهم أشبهَ بالأطياف
في حلم رديء، ويطلّونَ على وجه النهايات
الجليديّ الأساريرِ -

أزحتُ الثلجَ عن مائدةٍ
في شرفةٍ تلمس أطرافَ السحاب
فوجدتُ الإسم محفوراً بسكّينٍ

(عميقاً حفرتْهُ

يدُ مَن كانَ هنا قبلي) ـ

عميقاً. . .

في الخشَب.

بعدَ الطرُقات

أتركُ أعبائي في ظلّ جدارٍ
بعد أن قطعتُ الطُرقات
والعاصفةُ التي كانت تعيشُ لأحقابٍ
متذمّرة في مغائر رأسي
تقتنعُ أخيراً بالسُكنى
تحت جناح نسْرٍ
ساقطٍ في الخرائب حيث كانتِ الجريمة..
الذئب يحومُ
حول مخيّمات الجرحى:
خلفَ عينيه غابةٌ من المخالب
لكن قد تظهر نجمة.
قد تظهر لنا نجمةٌ أمينة.

طريق الأوّل والتالي

اتركْ عينيك على حجرٍ
لم تعبر به قافلةٌ
لم تخطُ عليه قَدمٌ
كنْ قَدراً واتبعني. .
كلُّ الطُرقات الأخرى
تمتدّ بعيداً
وهي جميعاً ملتوية
لن تخرجَ منها
بأقلَّ من الحتفِ ـ
تلك طريقٌ
من سارَ عليها
ضيّعَ أمَّهُ وأباه
وأضاعَ الأوّل والتالي
وستنهضُ من نومكَ يوماً
لتزيحَ ستاراً عن نافذةٍ

فتراها، أو تبقى
في نورٍ يتخفّى، يتجلى
لا تعرفُ ليلاً
ونهاراً، موتاكَ على
ظهرك وديُونك أعلى من جبلٍ
لكنَ طريقك تتبع مجراها
عارفةً
أنّك مثلي
لا بدّ وأن تأتي.

كواكب الذبياني

«وليلٍ أقاسيهِ بطيء الكواكبِ»
النابغة الذبياني

بيدي اليمنى المتعبة، في طريقي
إلى المطبخ البارد لأغلي الشايَ من جديد
أُشيرُ إلى الصباح الذي يزحف كبزّاقة ذهبيّةٍ
من الشرق، بين التلال وأبراج التلفزيون
في هذه المدينة النائمة بوقاحةٍ على كتف المحيط
قائلاً
بعد الإشارة
من الباب المفتوح الى النصف:
«أيها الصباح الجميل يا ابن الزنيمة
خِلتُ هذه الليلة لن تنقضي
خلتها نسيت كيف تنقضي الليالي وكدت أُسلم أمري..
كدت أسلم أمري أيها الصباح الجميل يا ابن الزنيمة
وخلتُ هذه الليلة لن تنقضي أبداً.»

برعشة خفيفة من الرضى
ولكن ميّتاً من النوم والإرهاق، أكاد أضاهي
النابغة الذبيانيّ في إحدى لياليه
عندما ساوم الملوكَ في الظلام على حفنةٍ
من الخلود وشكا
من بطء الكواكبِ في قصيدة ـ

أفتحُ البابَ على مصراعيهِ بعدَ أن أقول هذا.

كيف يأتي الفجر

«كواكب الذبياني : نصّ ثانٍ»

في طريقي
إلى المطبخ البارد لأغلي الشايَ
للمرّة الأخيرة، أُشير إلى الصباح الذي يزحفُ من الشرق
بين شِباكِ الهوائيّات العنكبوتيّة على التلالِ، وتحتَ
قطَعاتٍ متحرّكة من السحاب
تستنيرُ أسافلها بلهيب شمسٍ سوف تشرقُ بعد قليلٍ
في هذه المدينة إذ تنامُ
على ساحل الليل والمحيط الهادي
بعَد أن رقصتْ عل كلّ حبلٍ كما يقالُ
وتطلّعتْ مطوّلاً في كل هاوية :
بعد أن عصرت آخر قطرةٍ
من آخر حبّةٍ
في العنقود الأخير الباقي على الدالية
قائلاً له

بعد الإشارة إليه
من الباب المفتوحِ إلى نصفهِ بيُمنايَ:
ـ خلتُ هذه الليلةَ لن تنقضي
خلتُها نسيتْ كيف تنقضي الليالي
خلتها لن تنقضي أيّها الصباح المتأخّرُ يا ابنَ الزنيمة
وكدتُ انفضُ منكَ يديَّ، وكدتُ أُسلم أمري..

أقولُ هذا من وسْط نعاسي
في ليلةٍ مثقلة بكواكبَ من أبطأ ما يكونُ
وأفتحُ البابَ على مصراعيه بعد أن أقول هذا.

لغة الفجر

لغةُ الفجر مليئةٌ مثلَ صمتكِ بالوعودِ
تتمنّعُ مثلك عندما أريدُها
هذه اللحظات التي تتدلّى في فضائها
ولا راحةٌ مفتوحةٌ بما يكفي
لتلقّيها كالثمار من الهواء..
هذه الصفقة مع الوجد كأنني
أنتظر وثبةَ الريح من وكْرها
وانسلالَ الشرارة بخفّةٍ إلى هذا المكان..

لن تستلّني من عجينةِ نومي هنا
أصواتُ ديوكٍ جهيرة تتحفّز للاحتفال بالفجر
من سقوف كركوك
ريشُها الزاهي لن يشعّ لعينيّ ثانيةً كبدلة العيد
أصواتُها الراعفة بأمجادٍ على وشك الانكشاف
أو الانهيار، لن تفزعني من أحلاميَ الآن

ولا ترعةٌ شديدة الخمول كنت أُصغي إلى مائها في الطفولة
كلّما هربتُ من صفوف مدرستي
لأهيمَ على وجهي في البراري. . .
حتّى يرفعَ النهارُ وجهَه المشغوفَ من بين البنايات
كأفعى أيقظها نداءُ مزمار مجهول، وأسمعُ رجُلاً
يسعلُ في الخارج بقّوةٍ ويمضي.

الأغنية

(عندما تأتي)

أغنيةٌ لا أسوارَ لها
تُغرينا بهدمها أو بنائها، لا أبوابَ
ولا حجارة، لكنها دائماً تأتي بلهاثها الغريق
تأتي بمن يطرقُ ليلاً
على باب غير مرئيٍّ، ومن ينادي أحداً
لم يعد بين الآخرين! ليبقى منه الصدى ى ى ى
ليبقى منه الصدى القريبُ، والبعيييييد. . . .

أنتِ
عندما تأتين
من وراء تخومك المجهولة إلى البداية
حيث جرحٌ يبدأ بالاتساع مقدّماً
كبركةٍ تلقّتْ حجراً
أيُّ فمٍ سيُرضيكِ في هذا الطقس الرديء، أيُّ عازفٍ

يُسلمكِ حيّةً إلى أوتاره، حتّى لو كان
«مِضرابُهُ من قوادم النسرِ»
كابنِ زِرياب؟
لستِ سوى هذا الصمت
المشروط باندثاره، وهل أنتِ إلاّ
وجهُ عابرٍ لا يأبهُ لمن نادى، من تمنّى ومن غنّى
هنا في منفاه الجديد، أو هناك
على حدّ القرية التي يموتُ
كلّ يومٍ، ويولدُ
فيها...

أغنية للشتاء في فندق بالحيّ اللاتيني

لمصاحبة السكّير
الصارخ في بريّة أحزانهِ
أو نومه، مسعوراً، لا يتهاونُ أو يخبو
لمصاحبة السكّير الصارخ في نومه مسعوراً
وكأن وحوشاً سائبة في النوم تطاردهُ
نحو مهاوٍ ليس لها قاعٌ،
وأنابيب الماء
الثرثارةِ حين تغرغرُ في منتصفِ
الليل -
أنينُ امرأةٍ
يعلو نحو مشارف ذُروتها في إحدى
الغرَف العليا، وسعالٌ
يصعد منخوراً كنداءات غريقٍ
من بئر الظُلُماتِ، لساعاتٍ
يقتلُ آخرَ أملٍ

كان يراودني:
أرَقٌ،
أرَقٌ حتّى الفجر التالي..
رأسٌ يحفر أشكالاً سالبةً في سطح مخدّة.
البردُ شديدٌ...
ثلجٌ بالأمس، خفيفٌ
تقليديّ
في هذا الوقت من العامِ
الزاحف نحو نهايته، مازال يغطّي الأشياءَ
كأنّه كفَنٌ، لكنَ «الشوفاج»
تعطّل في الغرفة منذ ليالٍ
وانقطعَ الدفُء...

فتحتُ مقابضَهُ
حتى الآخر علَّ الدفء يُعاودُهُ
وركلتُه، في نوباتِ قنوطي، مرّاتٍ عدّة.
أصغيتُ إلى تلك الأحشاء
الجوفاء الملويّة كالأرغن لِصْقَ جدارٍ
وحلمتُ بموسيقى الماء الساخن تحملني
في ملكوت النوم على أجنحةٍ من دفءٍ

لكنّ العازفَ ماتَ كما يبدو
وسدىً أركلُ جثّتَه بحذائي
وسدىً أكتبُ في هذا الدفتر
ملتَفّاً بجميع ثيابي وغطائي
أنّ الشوفاج تعطّل مُنذُ، ولا أحدٌ
لا أحدٌ، لا أحد يأتي
ليصلّحَهُ..
وإذا لم يأتوا اليومَ، سأكسرهُ.

أحدُ النُزَلاء
على الأدراجِ، تنحّى
حين رأى وجهي، معتذراً
لا أعرفُ عَمَّ، وكلُّ نزيلٍ
يحمل وسْطَ جبينه وشماً، لا أعرفُ كيفَ أفسّرهُ..

لقاء مع شاعر عربيّ في المهّجر

في تلك الساعة المنبوذة والمنفردة
في تلك الساعة من الليل حين تضيقُ الخَيارات
حتّى يتّخذَ كلُّ غيابٍ للمعنى شكلَ سحابةٍ من الدخان
بين أصوات الزبائن السكارى في ذلك المطعم الصغير
وهدير المحيط الهادي الذي يدكُّ، في الأسفل، شاطئَه الصّخْري
في تلك الساعة المنبوذة من الليل، في تلك الساعة المنفردة
حدّثني عن شعراء المهْجر الأسطوريّينَ
وكيف كان يعرفهم في شبابه، هو الذي
ما زالَ يتبعُ نفْسَ الطريقِ.
ومن دفتر عتيقٍ
يحملُ على غلافه أرْزةَ لُبنان
أخذ يتلو عليَّ قصائدَهُ العموديّة الطويلة.

كان يعرفهم جميعاً
من «جماعة أبولّلو» إلى «الرابطة القلميّة»:

رشيد أيّوب، إيليا أبو ماضي، أبو شادي والبقيّة
لكنّهُ هوَ اختار الطوافَ، هامَ على وجههِ
في الدنيا، صالَ وجالَ في الأمريكتين
ليس كاللّيْث دائماً (غمَزَ لي). . .
صادَ أكثر من ظبيةٍ في صقيع شيكاغو
ورَمتْهُ أكثرُ من حوريّةٍ على ضفاف الأمازون
بينهنَّ خُلاسيّةٌ ناريّة الصفات ما زالت تطاردهُ
حملتْ بابنٍ لهُ في إحدى الغابات. . .

كان دليلاً
يُرشدُ السيّاحَ بين ميامي والبرازيل
في مُدن لم أسمعْ بأسمائها، وطبّاخاً في سفينةٍ
تمخرُ بحر الكاريب.
ذاقَ ثماراً غريبةً واحتكَّ به الموتُ، هازمُ اللذّاتِ
في أكثر من مناسبةٍ
(كان، لفترةٍ، يمارسُ التهريب).
بل جاءَ عليهِ زمانٌ ياسيّدي
جاء عليه زمانٌ كان فيهِ أميراً
يملكُ صفّاً من البنايات
حتى ظُهور الشريك المحتال كأنّه قَدرٌ

يتبعهُ، طلباً في النسيانِ، الشراب
فالنساءُ وكيدهُنّ، فالمحامون اللصوصُ فوق رأسهِ
كالصقور، فوجهُ القاضي الأشكنازيِّ
كالحَدَأةِ المشؤومةِ إذا رفرفتْ
فوق قمّة الزبالةِ، فهاويةُ
الإفلاس. . .

وها هوذا
في سان فرانسيسكو أخيراً
حيث ألقتْ به آخرُ عاصفةٍ منذ سنين
بعد أن أنهكهُ الترحال، يطبخُ من منصف الليلِ
إلى الفجر، في هذا المطعم الذي يطلُّ على البحر ويسمّى «الفنار»
لهذه الشخوص الليليّة، هؤلاءِ الضائعين والضائعات. . .
لكنّه أفهمني أنّ الحال كانت دائماً هكذا
دائماً، دائماً، دائماً هكذا
وذكّرني أنّ خليل مطران
فتحَ دكّاناً لبيع الفحم في مدينة بالمنفى
(ريو دي جانيرو؟ نسيَ، وقد تجاوزَ الستّينَ، المكان)
حيث كانَ، بين كلّ زبون يغادرُ محمّلاً
وثانٍ يُطلّ بأكياسهِ الخاوية من الباب

يُسطّرُ في كتاب ديونهِ
عَدداً من الأبيات. . .

ودّعني مبتسماً
وملوِّحاً بدفتر قصائده في الهواء
ورأيته يعودُ إلى مواقده، والدخانُ يعلو
من جديد، بعد أن أعادَ دفترَهُ إلى أحَد الرفوفِ
حيث تبدو نسخةٌ باليةٌ من كتاب «النبيّ» لجبران. . .

رأيتُ دخانهُ يعلو مرّةً أخرى.
رأيتُ الأرزة على دفتره من جديد.

مديح اللقاءات

نتركُ حريقاً حيثما كنّا، ثمّ نشتاقُ
إلى البحر في عزلته القويّة، كمن تحرسه أوثانُ لياليهِ
ويغنّي وهو يحدّق في الهّوة. .
في كلّ منّا ساحل لاستقبال الموجة الآتية
لكنّ هذا العالم المجبولَ بأحشاء ضحاياهُ هو العازف والقيثارة. .
فلأكسّرِ اسطواناتي
سمعتُ ما يكفي من الموسيقى
ولأحطّمْ أخشابَ رفوفي
فلم أعد أحتاجُ بعد الآن إلى كتبي
ولأتبعْ نيراناً هاربة بين الأشجار حيث ترقص الريحُ عاريةً كسالومي
بعد أن فازت على طبقٍ فضيٍّ
برأس يوحنّا المعمدان. .
سيُرشدني إليها الدخانُ في كلّ ليلة
إذا حطمتها الليلةَ وغذيّتُ بها النار. .
لأقدّسْ شيئاً أبعدَ منكِ ومنّي

حتى يتجلّى اليوم واضحاً لعينيّ، مسترشداً أيَّ ظلٍّ
قد يدلّني إلى كلماتي
وذاهباً إلى النهر وعلى ظهري شِباكي
لأُلاقي مدَّ الأحياء في كل يومٍ هناك.



أغنية الساعات

ما الذي تفعله النجمةُ في أسوار جلدي
أيّ نار فقدتْ أطفالها في الليل تبكي مثلَ أمّ في طريقي
ما الذي خبّأتِه أيتها الأيام كالجمرة في أجنحةِ أو تحتَ
سجّادةِ بيتِ
أيّ مجنونِ وموعودِ تخفّى بإهابي هارباً بين العواميد بوجهي
أيّ عصرِ يبدأ الآن وفي أيّة أرضِ نمتُ وَحدي.

وضع في زمان ومكان

هذا النهار يموتُ
بدوره أمامكَ الآن
مثلَ نافورةٍ بدأت بالنضوب
تبصق بين يديك
جمراتِها الأخيرة
في هذه الضاحية المطلّة على المدينة ـ
هذا النهار وليسَ لأيّ نهار آخرِ
يموت بدوره أمامكَ الآن. .

كلبٌ ناءٍ
ينبحُ في أحَد البيوت
وامرأةٌ
بعد الحبِّ
في هذا البيتِ
تنام.

تقدّمي
من قاع الكون إِذاً
ايتها النجوم الغريزة كالحَصباء
وانكشفي بجلاءٍ أقوى
تحت لمسة الظلام الآمرِ أيتها الأفلاك
لتنيري ثانيةً
مشهدَ الحبّ المليء وكيف لا ينتهي
إلاّ ليبدأَ من جديد.

ليأتِ الظلام.

أسطورة الرعشة والريح المؤاتية

١ ـ

من وقت القشعريرة وهي تبني
في اللحم جسورَها
أو تُنزلُ الجُدرانَ عن قامة العراءِ
من وقتِ
يترنّم الدمُ الجديدُ فيه
أو يتجمّعُ ليغزو
صباحاً من البُعد والنقاوة
صباحاً من النقمة يتجلّى في كل إيماءةِ
تدلُّ على الطريقِ واللاطريق..

ألمسها كحدّادٍ يحلمُ بالمعادن
كلّما جاءتني الرعشة وكانتِ الريحُ مؤاتية.

- ٢

كالنظرة الأولى في انكساراتها
بعيداً حتى الهبوب النهائيّ لسُلطة القفار
بعيداً حيث المرأةُ الأولى في سريرها
المهجور تلتهبُ، بعيداً
طَوالَ التهابها
نسيرُ في الهواء الجريح بين أجنحة الطواحين
لأننا وُلدنا لنخدم الريح
في مهبّاتها نلتقي بالشكل الأموميّ وقد تدلّى
مُنحنياً باتّجاه الخرائب

في أصابعها اشاراتٌ
وجهُها لها

لكنّها لي وحديَ تختار أن أجري وراء مدِّها
حتّى سُبل الأمواج المقفلة
تختارُ لي أن أجري
وراء قوس نشوتها الموتَّر الذي أجري
إليهِ وأجري
لاحقاً نفسي بلمحة سابقاً نفسي بلحظة

لاحقاً سابقاً بلحظة
بلمحة

٣ ـ
تعرفُ أنني أقضي الليلَ وراء سور
وفي يدي مفتاحٌ إلى وليمة
تعرف بالغريزة كأيّة أنثى
أنّني محاربٌ يبحث عن ثغرة الحصار
حيث الهزيمة تنزلقُ حاملةً جنينَها
والأفقُ مستسلماً يصبُّ
زُرقتَه الأخيرة
أريدُ لها
أن تخرقَ اليومَ خَتْم الهاوية
وتركبَ صرخةً إلى المجد بفخذيها
مجبولةً دائماً بتلهُّبي
وأنا أربط الليلَ بالآية
متخلّصاً من نسوري الميّتة على المعابر

فالبابُ لغير النشوةِ لن ينفتح
وللغُراب في البُعْد آمالٌ كبيرة

رغبةٌ هذا مداها

لحظةٌ واحدةٌ، ببابها
الذي يدعو إلى الدخول
وتفتحه الرغبةُ بإيماءةٍ إلى مرغوبها النائي
لحظة فاغرةٌ، لحظة مشغولةٌ
بسرَيانها، حدّيةٌ
لا تُهادنُ، أو تردّ على الأسئلة. .

ظروفٌ، بسيفها القاطع الحدِّ
أو المثلومِ، تحكمُ غيابياً علينا، بيننا
ربّما لتبرهنَ أنّ الزمانَ، وإن لم يكن عدوّنا
حقاً، فهو ليس صديقاً وفياً لنا ـ أنّ الأشياءَ تجهلُ معنى
الوفاء أو الخيانة، والأماكن لا توافينا دائماً بأمانةٍ في هذا
العالم المديد. . لكنّ اللقاءَ مفوّضٌ بالوقوع وندري
أن الأماكن ليست غير مواضعَ مكروزة
للقاء. .

تبقى، إن هجرناها، خلفيّةً لذكرانا ـ
قهوةٌ قويّةٌ تفتح بابَ الدوُار، في مقهى
تُطلّ على البحر (طاولةٌ، زهرتانِ، شمعةٌ تصلّي
في لُهاة قنّينة، صوتُ جرسٍ
يقرعُ في قُبَّةٍ رخاميّة قديمة) ـ
شارعٌ مطيرٌ قطعناهُ، غرفةٌ
مُسدلَة الستائر في سطح عمارة. .

عندما تطرحين سترتك الموّشاة بالورود على السرير
في حركات يديك النهريّتين، في كلامك الملغوم بشهقات خفيّة
المرامي
تنزاح غلالاتٌ كأنما للمرّة الأولى
تعبر وراءها
قطعٌ بيضاء من السحاب، تستلقي في ظلالها حقولٌ
ناضجةٌ لاستقبال الشُهُب.
فائضةٌ هي الكلماتُ:
بنظرةٍ نقولُ ما نُريد.
رغبةٌ، وأنت تكشفين مداها. .

تكشفين ما للوقوع في الأشراك
من فوائد، وما للتوّقع من زوايا
في همساتك أحياناً، في كل كلمة تتفوّهينَ بها، في كلّ ارتخاءةٍ
ونأمة . .

تنوئين بدهشة تحت ثقلها، رغبةٌ هذا مداها
ثم تستديرين ضاحكةً باضطرابٍ
وأنت تفتحين الباب، لتذهبي.

دعوة إلى النهر

كلُّ حياتي تبدو واضحةً
العالمُ يفقدُ سطوتَهُ، والليلُ يمرّ ولا يأبه أحَدٌ.
لا أحَدٌ يأبهُ أو يدري . .
العالمُ بين يَدينا
يستسلمُ كالأبله برضاهُ
فنتركُ للرغبة أن تشطرَهُ
نصفينِ وتجعلَ بينهما
نهَراً يجري
حين تكونينَ معي
وتكونَ ليَ امرأةٌ مثلكَ تعرفُ كيفَ تُناجي
الليلَ بأسماءٍ، وتميل عليَّ
مع الفجر ملاصقةً
أو تمسحُ لي
ذاهلةً
عَرقي . .

بعدك جاءت تؤنسني
أنواعُ المخلوقات
السحريّة ترعاها
وتسوقُ مواكبها
الوحدةُ، تلك المغناجُ، إلى أحلامي:
أرضٌ مِعشابٌ، ليس لها حدٌّ..
تلك المغناج، الوحدةُ، بعدكِ، جاءتْ
كنتُ أقولُ:
وها هي تفتحُ لي
كعروس زائفةٍ صندوقَ حِلاها
العامرَ من أجل مواساتي..

لكنّ النهرَ يمالئني ثانيةً
لأُمارسَ فيه غرَقي..

مطربة الملهى في ميناء «أنكونا»

للبحر مراكبهُ
راسيةٌ في الميناء
وراءَ البار، بأشرعة مرخاةٍ
ترفلُ في الريح المالحة وتنْدى
وإذا ما ضعتَ على وجه البرّ
وضيّعتَ سبيلكَ في أحَد الأيّامِ
فلا تيأسْ، لا تيأس..
حين تغنّي
هذه، حين تغنّي
تولدُ، في كلّ مكانٍ
أعتابٌ؛
يتلقّاكَ
وأنت تحومُ
بلا هدفٍ في الليل أو الميناء
سبيلٌ.

في يدها اليمنى
ميكروفون برّاق له شكلُ الإسفنج
المحروق أو الصبّار تُغازلهُ
متعبّدةً في هذا
المحرابِ
المرتفع الأسعار وتسبحُ، في الجوّ، ذراعٌ يسرى
تبَعاً للإيقاع، يرفرفُ عند نهايتها
حيث تشعُّ أظافرها
كمخالب نَسرٍ،
منديلٌ.

بار النورس

(في سان فرانسيسكو)

أتركها تُماريني مرّة أخرى
هذه الرغبة التي تأتيني في المساء
لتستلقي بعفوّية أمامي كعاشقة جاءت
تريد المصالحة بعد شجارٍ ـ
أتركها طافيةً وسط حياتي كشارةٍ بلهاء
هذه الثريّا التي تجهل الإنارة.

بعزيمة مغامرٍ
يلبسُ شكلَ المناسبات
أو عصاةٍ يفرشون خرائطَ باليةً على الكراسي
كتابع مستريبٍ
يسري مع الريح في أعقاب رسولٍ
أتبعها باتجاه الطقس المدلهّم القريب

من البحر، من البحر وهياجه الليليّ الذي
لا يواسى، نحو بارٍ ساحليٍّ
تتسلّل من بابه رقعةُ ضوءٍ
كقضيب من النار تكتوي به بدلةُ الضباب
حيث تنتظر أشكالُ نساء في عُهْدة الدخان
الكثيف، أيَّ فارسٍ
بلا فرسٍ، أيَّ بحّار بدأت تخذلهُ
بوفرة أشراكها اليابسة. .
في عهدة موسيقى أُحاديّة المعنى
غامضة المزايا، همساتُها مقدّمة لصرخاتها
الآتية
على إيقاع الغرائز الأولية (كلّ نغمةٍ خفقةُ طائرٍ
يستيقظ ناعقاً في عشّين دفعةً واحدة)
تقولُ إنّ رحلاتك كلّها تصبُّ هنا
تقول إنّ الصَبابة هذه الليلة
أيضاً، كأية معجزةٍ
محتمَلة. .

لكنّها احتمالاتٌ صعبة وقليلة:
إمّا فتاة الحان ذات الجسد الأقحوانيّ
والنظرة الواعدة
أو الشقراء النحيلة التي لا تكفّ عن التدخين
يولعُ لها، لكلتا يديها، عددٌ تائق من البحّارة..
وربّما زنجيّة مُقمرة العينين لها سنّ ذهبية
تومض مقدّماً بطواعيّة حنانها
من إحدى الزوايا
بينما تعولُ مغنيّةٌ
من الجوكبوكس، كأنّها تُطعن بسكين:
«عُدْ إليّ، عُدْ يا حبيبي
سأعطيك آلاف الليلي
هذا هو وعدي ي ي ي..»

قد تكون فتاة الحان إذاً
لا الأخريات، هي وحدها من يُحيلُ
هذه الليلة أخيراً إلى غناء؟
وماذا تقول سِدوري؟ لكنّ سدوري تخبرني

بصوتها الناعس وقتَ الإغلاق، أنّ الحبّ
مهنة كاسدة في هذه الأيام، وتلقي بكأس أخرى
إلى مغسلة عامرة بالكؤوس وراءها
فأشربُ ما يكفي من البيرة
لرشوة الليل الواقف بكلّ حرّاسه
شرِساً ومليئاً بالنجوم، وراءَ الباب..

مرثية إلى عمر بن أبي ربيعة

قد أصفُ نهدَها

حلْمتها الورديّة وكيف تشفّ في النور القويّ

ناريّةً كالزبيبة أو تمْر الدين

قد أكتب عن نَمشٍ يغطّي كتِفيها

كظلال قوافلَ من النمْلِ

تعبرُ صحراءً من الصوّان

عندما تستيقظ في سريري

أو سريرها، عند الظهيرة أو في الضحى

وليسَ أبداً في الصباح..

لكنّ آخرينَ

أكثر جدارةً منّي

تغنّوا بهذا، وأجادوا ـ

نثروا أسرارها تحت كلّ قافيةٍ

حَبّاً ذهبياً لدجاجةٍ سحريّة، هم الذين خبروا

الرغبةَ بارتعاش اليتامى

فأشعلتْ على طرف اللسان آيةً
عابرةً ومّدت لهم جسراً
إلى النسيانِ، بالوهيج ـ
بكلّ آهةٍ أفلتت شاكيةً من فمِ
وكلّ ما أُتوا من البراعة، متوسّلين آلةَ الكلام
ليُسكروها فترضى
بصورة العالم كما رأوها وتأتي
فَرساً، ليّنةً، في النهاية. .
لكن هاهي عاشقة وجدتْ
حتى قبل أن أُحسن النطقَ باسمها، سريري
أزاحت بطانيّتي بيدٍ خبيرةٍ ثم دعتني
كمن ينازل خصماً، عبر نهر، بعينيه.
أين منّي
تلك الأسرار يا ابن أبي ربيعة
أين منّي ذلك المديح
إن كانت من أرفعهُ إليها
كما تُفسدُ الذئبةُ بأوجاعها تغريدَ الكناري
أفسدت مطامحي في إغوائها بمهلٍ، وعلى روّيتي
حتى يصيبها مسٌّ، وتعرفَ مجدَ الدوار. .

تقول، حدّثني. حدّثني عن القلب والحُشاشة، حدثني بالروح
وأخبارها
خبرّني بما كتبوا، أولئك التيوس، وصفْ لي باختصارِ
ولكن باختصارِ، طرَفاً من تلك المجاعةِ: صفْ لي!
ثمّ إن أقمتَ البرهانَ قاطعاً وأقنعتني
بأنّ الحبّ قد ينبو مقدارَ أنملةٍ عن مرامهِ
فليبطيء بنا الزمن ويمضِ على وتيرته المعتادة كما كان
ولك أن تُجهز آنذاك على جموحي
وتطعنَ بهذا القلم المستأسدِ
هاكَهُ! جسَدي.

موازنة ليليّة

نهايةُ ليلة مفهومةٌ، ستمرّ
محايدةً
مثل باقي
الليالي ـ
عصى في زوايا
دِماغهِ ظلٌّ، تبقّى أوارٌ
على حفنةٍ من رماده تغذوهُ، شبهُ أوار. .
وبالرغم
بالرغم من أنّ
من أنّه لن ينام، فأيّامهُ الآنَ
تغزو لياليهِ
حتى امّحت (أو تكادُ!)
خطوطُ التشابك بين المجالين
والنور أكثر بخلاً
وحيرتُه، من يقينه، أقوى ـ

مراسيهِ مكفولةٌ كلّها. . .

مراسيه مكفولةٌ
ولهُ قَدمٌ في الترابِ.

العنكبوت

على رصيف الميناء في جزيرة «روديس»، مدفع أثريّ ذو عجلات تخلّف من حرب غابرة مع الأتراك، ولم يعد يصلح الآن سوى للزينة في صور السيّاح العابرين، يواجه البحرَ العاصف وفي فوّهته عنكبوت صبور، ماهر الحركات ينسج شباكه الهشّة في الريح ـ ينسج شباكه التي تخفق بقوّة في الريح حتّى تكاد، إذ تراها، في أيّة لحظة تنهار لكنها في كلّ مرّة تبقى مشدودة بانتظار الضيوف أو الضحايا؛ ذبابة مستعجلة لم يبق منها سوى جناحيها، أو يعسوب متأنّق بإفراط في هذه المرّة، خرجَ مبكّراً للزيارة. .

الشبكة

عندما تكتشف أنّ الأشياء ليست كما كانت بالأمس، والنور أشدّ حدّة ممّا كان. .

أنّ المطرَ الذي يبدأ بالتساقط في أواخر النهار على شكل نسيج تندفه يدٌ مجهولة وراء زجاج النافذة البليل، والشجرةَ المغسولة الأوراق ـ والسماء المحمرّة الأطراف كبابِ مِصْهرة منذرة بانفجار قريب ـ أنّ كلّ هذا يدلّك بشكل خفيّ إلى ماضيه الخبيء، وفي تلك اللحظة ترى الشبكة.

ترى إلى أين تمتدّ، بعيداً حتى الفتحة المزنّرة بالسحاب حيث تولد الأشياءُ ساقطةً في حضن الأرض، بعيداً حتى خيام القبائل الأولى في وهيج السلالات، أبعدَ من فاكهة الدهشة أو أزباد الدهور ـ والعميانِ والعُصاة والجنود والملائكة والذئاب ـ عندما تكتشف أنّ الأشياء ليس كما كانت بالأمس والنور أشدّ حدّةً ممّا كان، وترى الشبكة.

زيارة إلى التنّين

أخذتُ أقضي أُمسياتي
في البحث عن أضيق الطرقات حول أطراف المدينة
أستدلُّ رائحةَ الطين والحَصباء المنقوعة لألف سنةٍ في البحر
وتُرشدني عظامُ الأسماك البيضاء
كأمشاط عاجيّة تلبسها أراملُ البحّارة
وكلابُ الصيّادين الجَذلى بألسنةٍ تتدلّى حتى التراب
نحو نَزْلة الميناء
وأدراجهِ الحجريّة
التي ما تزال دافئة
تصلحُ للجلوس قبالةَ البحر
والتحديق على مهلي في مَداهُ
عندما يكون أشدَّ زرقةً من عين قرصانٍ شرهٍ
يحلمُ بالأسلاب، وخالياً كما هو الآنَ
من أيّة سفينة. . .

النوارسُ وحدَها
تجثمُ فوق أضلاع القوارب والصواري
المدفونةِ في الرمل صابرةً بانتظار أن تهبّ الريح
بانتظار أن تهبّ اليومَ أقوى
فتفتح الأمواجُ
لها وديانَها ـ
حيث تنقضُّ النوارسُ مطويّةَ الجناحينِ
صاعدةً من الموج بانتصارِ
والفريسةُ ترعفُ حيّةً في مقصّاتِ
مناقيرها ـ
وقد تكشف أيضاً
عن القاع حيث البحرُ مشغولٌ
يُدحرجُ مسلاّتٍ فوّارةً من الحَصى
كربٌ لا ينامُ على حافة الصخور يهبّ لاستقبالها
طابورٌ مُدَزوِشٌ من الأصداف، وسلالمُ راقصةٌ
من السراطين المذعورة
تتلاطمُ كالصنّاجات في أوْج التياعها، ثمّ تهوي
من جدار الموجة العالي. . .

وبعد انسحابها

ترقصُ أسماكٌ صغيرةٌ

مدهوشةً على الرمال، نجمةٌ بحريّة، عنقودٌ حيٌّ

من الخُنشار، محارة لها أسنانٌ ورديّةٌ كالبواسير، مخلوقٌ

يُشبه اللحية، أسفنجةٌ تبكي . . .

كان البحر يصخبُ طويلاً هكذا

مثل تنّين في مراحل طعْنهِ يتقّيأ كنوزاً حيّةً

على الرمال، حيث ترقص أو تتلوّى وبعد قليلٍ تموت .



تجاسيد

بداية النهار

الرغبةُ مملكةٌ أنتَ أسدٌ بين أسوارها
يستيقظ الآنَ مطالباً بحصّته من لحم الفريسة.

فطور

على فيرندا الفُندق الخالي
عندما يأتي
صاعداً اليكَ أدراجاً
بساقه العرجاء خادمٌ
فقدَ القُدرة
على إخفاء حقده الصريح
تطلبُ منه الفطورَ بعينٍ منكّسةٍ
وكثيرٍ من اللباقة..

آدم

التقيتُ بآدم في فندق مشبوه على «السين»
تؤمّهُ النساءُ ناظراتٍ إلى الخلف
والشرطة تدهمهُ بانتظام.
كان يدّخن بشراهة.
واقترح عليّ
أن أهجر الشعر، وأن أطاردَ النساء
بهمّةٍ أكثر...

يونان النبي

يونان نبيٌّ
أُلقي في البحر
من سفينةٍ دبّ فيها الخوفُ
كأنّه الطاعون
وأهلكَ الصيّادين والبحّارة
لأنّه كان حيّاً لكنّه من الغرقى
وكان كالموتى ولكن ميّتاً من غير تابوتٍ...
حتّى تلقّاهُ فمُ الحوتِ.

خطوط بيانيّة

ستموتُ وتحيا.

ينحدرُ النورُ من باب الضرورة.

الكذْحُ كالثور في الطاحون
طيلةَ النهارِ

حتّى إذا هبط المساءُ
خرجتَ لصيد ملاكٍ
ضلَّ طريقَه
في أماكن السُكْنى..

الحُب

وجهكَ بيتي، أيّها الربّ الذي
أورثني غيابَهُ
كخنجرٍ
في جَسدٍ، ثم اختفى
ثمّ اختفى..

أمجاد

أعيدي أمجادَنا الليليّة

مرّةً أخرى وإلاّ . .

افتحي صندوق هذا العالم البائس ثانية

(وحدَكِ تعرفين أين المفتاح!)

ولتَطِرْ مخلوقات باندورا كلّها في نار فوراتنا

الجديدة .

هذه أربعيناتي!

هنا

تتجمّع الأنواء:

إنّه الشتاءُ والذئبُ على بابي .

الأشهر الأخيرة

الأشهر الأخيرة كيف انقضت وما فيها . .

لن تجد الخيط ـ

مهما أجهدتَ نفسك لن تجدهُ ـ

واصلةُ العِقد مفقودة . .

كلٌّ يسعى نائماً في سبيله

والمركب وين رايح، والقافلة أين تمضي
هذا ما لا يبوحُ به البحر
ولا تعرفهُ الطريق.

كنت أصعد

كنت أصعدُ متعثراً، أسهر من أجل لا أحد
أُسرع إلى غير ما لقاءٍ، في طريقٍ
لا تكفّ عن فرز اللقاءات
وغرفتُ خُطايَ
بملعقة السير ووحي أسفاري وأنتِ
تلك القيود المولودةُ على الأيدي
يُثقلُ سيري وعدُ تحطيمها..
كنت أتقدّم بعد أن هُزموا
واستيقظتُ بعدما ناموا...

لا بيت ولا حديقة

لم يكن هناك شارع، لا بيتٌ ولا حديقة
عندما اكتشفتَ أنّ جميع الأنهار بعيدة..

وقُود

أحدّقُ هذه الليلة في وجه اللهيب
كأنّني أبحثُ عن تقاطيع حياتي المرسومة في الرماد.

أن تكون الحلم

أن تكونَ الحلم، مصنوعاً من الريش تُناديها وتبقى
لا تنادي أحَداً، أو يتسنّى لكَ يوماً
أن تُغنّي أو تطير..

(سنةٌ أو لحظةٌ ـ
شارعٌ خالٍ، وأحياءٌ مطيرة)..

وجهٌ رأيته

وجه رأيتُه اليومَ في مرآة مقهى
كان يحمل شحنةً إضافيّةً من الغضب
كأنّه يشمّ خائناً في كرسيّ قريب.

أغنية رجل يستيقظ في الظهيرة

افتحْ عينيكَ على هذا
النور المتسلّل من خلف ستارٍ

كم فكرّتَ بحاجته للغسل ولم تغسلهُ!
لكي يوقظك اليومَ من النومِ، لكي تبدأ، واستبشر
وكفى نوماً . .

أنباؤك لم تأتِ ـ
زمانُك ينقصُ يوماً.

أغنية رجل لا ينام

ذهبَ النومُ وطارَ
هل تعرفُ أين صارْ؟
في آخر الملكوت.
ومن رآه يمضي إلى هناك؟
عابرٌ أو عابران في الطريق.
هل تدري من أين مضى
وأيّة طريق اختار للذهاب؟
في الفجر والليلُ يموتُ والندى
يسيلُ على الأعشابِ، راجلاً، في سيّارة أجرة
أو راكباً صهوةَ الريح
تلكَ الفرَس النبيلة.

أصغرُ الأشياء

أصغرُ الأشياء تخفي إرثها
المجهولَ في رشح الليالي
ولُحاء الكلمات. .
هذه الأشياءُ لا تعرفنا
لكنّها تعرف ماضينا، لذا تسحرنا حين تغنّي
أو تنادينا إلى أيّ مكانٍ
فهي أيضاً
تختفي دون التفاتٍ
دون ريح، رايةٍ، مستقبلٍ في العاصفة.

إلى الواو، بانية الجسور الخالدة

لا تشرعين في العمل من دون دعوة:
كلّ جسر يولد كاملاً، جاهزاً أمام العابرين.
لأنك دائرة مقفلة تمشي على عكّاز، لا تعرفين إلاّ شيئاً
الوصول.

أريكة الملاك

إقلب الدورَ إنها محنتك من جديد
سبّح بأمجاد السكّين والقِ بهذا الإرث السَليخ إلى الرياح.

سأقلبُ الدورَ، وأُلقي بهذا الإرث إلى الرياح.
لكن يا للأمل من وباء شائع، يا للحَربةِ
المشكوكة في صدرِ من طنينٍ
يجرّدُ من سكينتهِ ملكوتَ النائمين
ولجبهة البهلول من ماءٍ فريد يرقص وحدَهُ في دائرة!

أمّا الملاكُ فجالسٌ على الأريكة.
قُم فصارعِ الملاك.

وعدٌ مقطوع

سأربطُ خيطَ حتفي بالطريقِ
بحبلِ سُرّة لحظةٍ
تأتي
إلى بوّابة ناريّةٍ
قيّدتُ في نيرانها رأسي
سأسكبُ من يدي ذهباً
سأبعثُ عالماً في لحظةٍ ذهبتْ..
وأذهبُ عندما يدنو ذَهابي.

الفَلْس

جلستُ طوالَ النهارِ
أحلمُ بهذا اللُغز: بلادي
عندما وجدتُ فلساً في جيب سُترةٍ قديمة.

باب البيت

هل دفع الشاعرُ ثمنَ الحقّ بأن يدخلَ من باب البيت أخيراً
أن يملكَ مفتاحاً وسريراً. .

مرثية لكأس القُدرة

سنشرب كأسَ القدرة بعد لكن كيفَ وأين. .
لارتهان الغد، ذلك الحيوان الجميل الساهر في ظلّ ولادتهِ
أنقى بياضاً من جَسدِ النقاوة: هناك تسبحُ المنحدراتُ
كلّها في دمعة شاهدٍ، وفي كلّ عينٍ تموتُ قبيلة.

تطوّرات يوميّة

بدأت أقول في التلفون للأصوات التي تحادثني آناءَ الليل أحياناً من مسافات بعيدة (صديقٌ ساهر في قارّةٍ أخرى، عاشقةٌ من الماضي) - بدأت أقول لهم ما أقوله لنفسي. . كيف أنّ الحياة هذه الراقصة الهمجيّة بدأت تقشّر نفسها بمحض اختيارها.

أخيراً، أمامي كراقصة الستربتيز السكرانة في الملهى ـ بطنُها تحت الأضواء خارطةٌ ملأى بالرفوءات، وثديها يتدلّى متعباً من أيّامه بعد أن أرضع الكثيرين. .

ضحكاتُ المهرّج تحزنني وتجعلني أرثي لجمهوره، كلامُ السياسيّ يبدو عارياً كأنّ غصناً جرّدَتْهُ من لحائه يدٌ سريعةٌ، وموحشةً تبدو لعينيّ القاعةُ المضاءةُ، المأهولة.

أميّزُ على كلّ شاشة سلطةَ الأكذوبة. وفي مكان المنصّة، أرى خشبةً جاهزةً للصَلْب.

حدثَ في طنجة

في إحدى حانات طنجة
قال البارمان أنّ له كلباً لا يكذب
(كنا نتحدّث، كما يبدو، عن الكلاب)
فصفّر محمّد شكري متلفتاً إلى الوراء
وإذا بثلاثة رجال يرتدون الجّلابيات
يدخلون على الفور، كأنهم نوديوا، من الباب. . .

سياسة آخر الليل

إذا رأيتَ رجلاً
يركضُ هارباً في الطريق

ورأيتَ طيفَ آخر يطاردهُ، دع الأوّلَ يمرّ بسلامٍ
وحاولْ أن تُعرقلَ الثاني. . .

الشاهد

ما تبنيه اليومَ، قد ترقصُ في خرائبه غداً.
إذا كنت تبحثُ عن شاهدٍ
تطلّعْ إلى المرآة.

رأيناك على الشّفرة

كنتُ أحلمُ بأكذوبة جميلة
ووجدت كلّ شيء حقيقياً يصرّ على التعرّي أمامي . .
هجمتِ الأحلامُ من لا مكان قطيعاً من الماشية حطّم سياجاته ـ
قوانين الطبيعة نكّست أعناقها في هذا الصباح المثمّن الأطراف كجوهرة أرخميدس، وأنا في أثينا طموحي لا يتعدّى المرورَ خلسةً أمام قبر سقراط في «الأغورا» والهروب لمدى غير محدّد من مقبرة التفكير أو الكتابة . .

هناك أسباب لكل شيء ولكن أيها الـ (حلم؟) الـ (الكلب؟)
الـ (. . . ؟) لماذا تتبعني؟
ركلتُه إلى الهاوية فقام من الهاوية، قادراً على أن ينبح من جديد.
بيني وبينه جريمة وديّة، عمليّة قيصريّة للوهم، في كلّ صباح.
وجوه الخراف لم تعد تذكرّني بالوطن. تلك المظلة التي تلتهب في الوادي،
ويتفاداها المهاجرُ بحقيبة

ذلك النسر الذي يطير من آخر سماوات الصدمة

لا ليفقس بيضةً للمجد، بل ليدخل مرثيّةً جديدة. .

المجازفة برأس القبيلة بين مراوح طائرة تستعدّ للإقلاع من مطار مخرّب،

الصلح بين من؟ بين «من» و«ماذا» ـ هذه الكلمات وحدها تتراصف الآن كرفّ حَمام على جدار مهدَّد بالقصف. .

عليّ أن أطاردَ كلَّ شيء حتى منابعه، حتى تَرسُب هذه النجمة تحت شرفة انتظاري مثلاً

أو تختفي حياتي الماضية بدرابةٍ كمحفظة سائح في ميناء.

كيف يمكنُ تلخيصُ الظلام؟

وهذا الطابور الهزيل من الأنبياء (تجمّعت عظامهم في سلّة الشعب، أضافت لِحاهُم إلى أهرائها الأمّة) إلى متى يهتزّ ورائي كحبل أبديّ للغسيل كلما تكوّم عليه قتيل آخر. . .

يظهر قبل الفجر بلحظةٍ، بلحظة واحدة قبلَهُ: الألمُ ثُنائيّ الوجه يهجم بعد حصار طويل. . .

يقولون: التربةُ حاملٌ وهالكة من الحرارة، ثيرانها نائمة تتدلّى ألسنتها إلى الوادي حيث القرية تلهث في بريق الأزرار العسكرية.
يقولون إنّ نهراً من أحذية الهاربين ينبعُ من محطّةٍ أو مطارٍ، والمهاجر يحلم أنه يرمي حجراً فيسقط (عبرَ عدّة بحارٍ) على سقف بيته الذي لم يعد هناك...

ها هو يستنتج: من الواضح أنني وصلتُ حيث تجمدُ الأرض سارحةً في مكانها، وعليّ وحدي أن أدور. فلأدُرْ!

يقولون أيضاً: لا تقلق. سيولد الكثيرون بضربة منجلٍ في الهواء، بين شريان الخارطة المقتلّع وبقْجة المهاجر الرثيثة. سترى النبع أخيراً على ضوء الفوانيس، على ضوء الحباحب في طين البساتين: هناك ستغسل شعرك المعفّر بجرّتها امرأةٌ جميلة، في بيت طرذنا منه الليلَ قليلاً بآخر شمعة، وطالبت بك معاولنا تطرق بثباتٍ على صدر الحجارة فنحن رأيناك ترقص على شفرة العالم وتحتَ رجليك الهاوية.

إقامة في اليونان

البحّار الذي يحيّي المارّة من كرسيّه
في مقهى الأكروبول، ويعرفُ تاريخَ الكراسي
يعرف أيضاً أنّ الرأس الذي آنستهُ أمواجٌ كثيرة
ولم يرث إلاّ الدوار، صعبٌ عليه أن يستقرّ أو يتّزن، صعب عليه
وهو صاحٍ أن يتذكّر أسماء السُفن
أو يحصي النجومَ التي تنوس وراء دكّان الخمور
حيث براميل الرتسينة الغبراء تستلقي
برخاوةٍ تحت الرفوف
كأجساد جوارٍ تدعوه بسحرها
تدعوه بإشارة سريّة كما دعتني. . .

هذه النافذة المطلّة على البحار
كانت بانتظاري كالعروس منذ سنين عديدة
وتلك الأصوات التي تغزوها مع الريح إذا جاءت، في الأماسي
البطيئة، من بحر إيجة

ما هي إلا حشرجات البحّارة الغرقى
لسكّان الضفاف
مازالت تتدحرج من أعماق الملاحم على ظهور صيّاديك الضامرين. .
إنها عظام المراكب تلطم شواطيء الحاضر
حتى تصل اليوم إلى هذا الميناء
على شكل خرافة تكلّست بملح المحيطات، خَبرٍ عن أوديسة
مازال يهمهم بها هوميروس من وراء القبر
هو الذي سحرته مياهها الزرقاء في عَماه، فحمّل إليها مراكبَهُ
ودلّ أبطاله إلى نيران المآدب في عيون الساحرات:
كلّ فرسخ بحريّ إلى كهف نوسيكا الساحرة ـ
كلّ خطوةٍ مقابل كلمةٍ بخيلة. .

إنها هذه المائدة التي تهتزّ على إيقاع رقصةٍ
ضاريةٍ في الشمس، بكأس فارغة إلى نصفها، بصحنٍ
فيه نُوى زيتونٍ، عظامُ دجاجة
حيث أتدّرب على الإيماء لزرقة الأمواج، لطيف زوربا الرشيق
لمواكب الفلاسفة الموتى التي أراها
تغادر هذا الميناء مهزومةً كلّ يوم
أو تدخل هذا الميناء كلّ يوم حيّةً برايات انتصارها
والنوارس التي تلاحق السفن بانتظار زبالة تطفو على الأمواج

هنا حيث أتدّرب على الإيماء السالب منذ الظهيرة
وأتعلّم كيف أقتل وقتي كأنّه عدوّي!

كلّ خطوة مقابل كلمة بخيلة. .
وقد أتعثّر هذا الشتاء بعظمة بطلٍ
من أبطالك الأسطوريّين على الرصيف لتهمس لي
عن الدم الذي جرى: إلياذةٌ مفتوحة الأقدار كمهبلٍ مُضنى
لن تلتمّ أطرافُها حتّى يتمّ إنزالُ هيلانة
تلك الغانية الأبديّة في كل ليلةٍ من أسوار طروادة
إلى الأيدي التي تتلقّف تحتها ملهوفةً
أيّ شيء، أيّةَ مِنّة.

ساحة أومونيا في أثينا قبل المساء

بينما تزداد الجموعُ كثافةً
أمام الدكاكين، ويبدأ الضياء في الأفُق بالخفوت
إيذاناً بحلول المساء. .
مع مرور الوقت وإيذاناً بحلول المساء
بحلول مساءٍ آخر، مساء آخر. . .
بين عرباتٍ خشبيّة
كُدّست فوقها تلالٌ من الساعات
(رخيصةٌ، صُنع اليابان) مزبلةَ
لأشلاء الزمانِ الجنينيّة! ـ أحزمةٌ جلديّةٌ، مظلاّتٌ
كتبٌ قوّرها المطر
وانتفخت صفحاتُها المجلودةُ بالريح
في حراسة الباعة الواقفين، كالنسورِ
أو ربّما خيالات المآته
وسْطَ تيّارٍ أهوجَ من السابلة
تمخضه هذه المدينةُ بلا هَوادةٍ

كأنها قِربة كبيرة لنشوة العبور تمنحها صِرفاً
للعابرين . . .
بينما دائرةُ البريد
المواجهة للساحة
ذات النافور المعطّلة
غارقةٌ في سُعارها المعتاد، ترمّم وجهَ الظلام القادم
بسيل من البرقيّات، ويسحبُ السُعاةُ
أكياسَ الرسائل على الرصيفِ
من رقِابها ـ
يعبرُ الجميعُ بدأبٍ مثيرٍ
من مكان
إلى آخَر، تحت المصابيح القويّة، كأنَّ العالمَ هكذا
كان منذ بدء الخليقة . .
يعبرون من مكان إلى آخر
بدأب مثير، كأن العالم، كأنّه ـ
لكّن بائعَ الكستناء
يُعسكرُ في باب السينما، أمامَ صينيّة الجمْر
مغسولاً بأضواء النيون العليلة
والعجائز لابساتُ السواد
يتملّينَ خروفاً في دكّان قصّاب

يتدلّى مبقوراً من الحُنجرة
حتى إليته الممهورة بدمغة الحكومة الزرقاء..
وبينما المطر يسحّ على السقوف برهافةٍ
أو يتكسّر كالسهام على المظلاّت السائبة نحو القرارة
ينطلق الظلام كالوحش من عقاله ليرتادَ الشوارع، حيث يخرجُ كلّ شيء من نفسه، ويطو و و وووووو و وو ف...

أمسيات نموذجية

عُد من وظيفة مُملّة متمهّلاً في شوارع مسائيّة صاخبة إلى شقتّك في حيّ من أحياء أثينا واجلس أمام نافذة مفتوحة على مصراعيها تاركاً لجبهتك الساخنة أن يبردّها النسيم الآتي من خرائب البارثينون القريبة حيث تعشّش آلاف الزارزير صارخةً في الغروب بحماس لا يكلّ قبل أن تنام..

ضع يدكَ حول كأس البيرة ومن إحدى الشرُفات حيث تسهر أرملة يونانيّة وحيدة، دع صوت ماريا كالاس عندما تغنّي أوبرا لروسّيني يأتيك من وراء القبر، صاعداً نحو النجوم على شكل حبال من اللؤلؤ أو الفقاعات تكاد تتابعها بعينيك الحالمتين حتى أطراف قبّة اللازَورد الغامض المتلاشي في الفضاء، واعلمْ، آنذاك أنّك تحيا.

شتاء في أثينا

ذهبتْ ومضى
في صحبتها الحبّ، لصيقَ خطاها
المتعثّرة، الحبّ. .
سلوقيُّ الجنّة يفلتُ ثانيةً
من بين يديك إلى الدنيا ـ
ذهبت منك الآن
ولم تتركْ
لكَ حتّى عنواناً.

سقطت من يدك الكأسُ
وأنتَ تلاحظ كيف سَرتْ كالطيف
وراء زجاج المقهى
اللزجِ بأنفاسٍ خاثرةٍ
وسط قطيع المارّة والسيارت
إلى النافورة

في ساحة «كولوناكي»
(يابسةٌ، ملأى بالصحُف
البائدة الأخبار وأوراق الأشجار)
وكيف سرَتْ وسط قطيع
المارة والسيارات إلى النافورة
عابرةً كالعمياءِ
ومعطفها المفتوح يطيرُ
بسيلِ الأشياء وبالناسِ
إلى أن غابتْ ـ
غابت فيهِ . .
نهَرٌ،
نَهرٌ تعبرهُ صبحاً ومساءً
تبدأ في المنبعِ لكنّكَ تنسى
أين تصبُّ حياتُك أحياناً .

كنت تنهضين من النوم لتزيحي الستارة ثم تعودين إليّ في السرير، تتبعك هالة من الغبار الذهبيّ الذرّات أمرّر فيها يدي المشعرة الغبراء ليغسلها شلاّل أشقر من النور. واليوم، حين أزحتها إلى اليمين، شبه نائم، في الضحى، وتدفقت شمس أثينا في غرفتي، رأيت جوربك المنسيّ فوق ذراع الأريكة يتألقُ مهملاً في النور، شفافاً كبيت العنكبوت.

كم من الوقت مضى، من كنّا حينذاك..

رأيتُ قطرات الدم القديمة في المنشفة البيضاء وقرأت، متلكّئاً، كلماتٍ لك في رسالة شرسة اللهجة بعد يأس الإطالة الأبدية، في غضب معذور ـ «لماذا لا تجيب؟ حتى السحالي تضيء طوال الليل وراء بيتي بانتظار جواب، والبزّاق يرتع آمناً هذه الأيام في صندوق بريدي. الطقس هنا ضارٍ كما في قلبي: تقتلع الأعاصير من جذورها الأشجار، وتلقي بالقوارب الصغيرة عالياً فوق السقوف..»

هل تهجم الريحُ الآن، عاليةً، من لا مكان..

ريح الذكرى التي تدعو إلى النزول، ريح الغياب على شفرة الذكرى. أكلّما اندفع نحو ظلامه العفويّ قطار، سمعنا الحبّ يهدل تحت العجلات؟ ماذا فعلنا بالهديّة، بتلك العوالم التي رأيناها، خلقناها من الأحاديث الطويلة على سطيحة مقهى، في ظلام السينما، بين الشراشف البليلة عن كلّ شيء في هذا العالم المسحور. من فتح النصّ الجريح، في أيّة هاوية للزمنِ اختفى. ماذا حدث لتلك الخليقة. في أيّة أحراشٍ بائسة يقهقه «الكاكابورا» ذلك الطائر الضحّاك في بلادك التي لم أرها (كنت تقلّدين صوته الهستيريّ أحياناً لتطردي عنّي نوبات الكآبة!) والطيور الغريبة الأخرى في أوستراليا البعيدة حيث سافرتِ قبل الشتاء..

كم شتاءً، أين، متى..

وهذه الرغبة التي تزورني في كل مساء، هذه الريح،

هذه الشهوة التي لا تعرف الاكتفاء، إنها تومض قليلاً كتاج دفين تحت القشور، في سَورة طافحة من الأيام إلى أن يجتاحني مدّها العميق بعيداً عن هذه الغرفة حيث أهذي لها، وأُصغي إلى صداها...

رَمْبيتيكو

(موسيقى يونانية)

يقول البحّار اليونانيّ العجوز
لعازف البزق البدين في حانة الإسكندر
بلهجة هازئة، بعد كأس الأوزو ما قبل الأخيرة
والليل ينضج كساق خروف على سفّوده الصدئ
والتثاؤب ينمو كالفِطْر
بغزارةٍ في حديقة الحانة:
«حان لك الآن أن تعطينا
شرارةً من نارك القديمة أيها الرجلُ، حان
لهؤلاء السيّاح المساكين أن يسمعوا شيئاً
لن ينسوه حين يعودون إلى بلادهم بسهولة
ودعك من الدوَران يا يورغو، دعك من الدوران..»

أو شيء من هذا القبيل...
دشّن الآخرون بتمتماتٍ متفرّقةٍ ما عناهُ.

وهكذا، بينما تحرق بُنصرَهُ

سيجارةٌ يشعلها يورغو بثقابٍ مبطئٍ

مغمضاً إحدى مقلتيه، فيما تدمعُ الأخرى

ويشهرها كآلة تعذيب بين أوتار بزقهِ

المزخرف بالغار، يبدأ العالم

بتقشير نفسه، كالبَصْلة، قشرةً بعد أخرى

أمام الليل المقيّد بأعراش أثريّة

لن يزيحها لا ملوكُ الإلياذة

ولا بحّارةُ الأوديسة

حتّى يسقط مذهولاً

في راحة النشوة

ويبدأ الإقتراعُ على رأسه، ويجري انتخابُ العذابِ ديّاناً عليهِ
بأكثريّة الأصوات...

الراقصة

حين تركتُ السينما
اكثر وحشة وفقراً واصطدمتُ بالظلامِ
في أثينا كالجدار، بين كُشك الصحُف المضاء
بالفانوس، والمقهى التي تعجُّ
بالمراهقين والجنود
قبل ان تعتاد عيناىَ على النور
رأيتها تطلّ فجأةً ـ
«إلزا» الخرافيّة في طريقها
اليوميّ من فندق «مينرفا» إلى الملهى
القريب خلف دار السينما
حيث تمارسُ طقوسَ الوثنيّة بشكل عفويٍّ
وبإتقانٍ على خشبته. . .
رأيتها تميلُ
كالشراع في ريح خفيّةٍ

يكاد خصرُها ينهارُ فوق كعبها العالي
وكَفْلها المنيف
كأنها مالكةٌ شرعيّة لذلك الرصيف.

النورس الذي يتبع السفينة في البحر

النورسُ الذي مازال يتبعُ السفينةَ في البحر منذ أن غادرت الميناء، ويحوم فوق رؤوس المسافرين كالعلامة، فوق سلّم من الدخان تجدلهُ مدخنةٌ كبيرة تحمل اسمَ الشركة، وعلامةَ المرساة. .

النورس الذي يركب الريحَ ناعقاً من أجل فُتاتٍ قد تلقي به تلك الظلال التي تجول سَأمى على سطح السفينة، بين المصاطب وأكوام الحبال، تتدلّى من أعناقها الكاميرات ـ

أُولاءَ الذين هربوا من مُدن الغرب الموبوءة إلى البحر وأفلتوا، لوهلةٍ، من طواحينه المسعورة لكي يتشردّوا في جُزر اليونان، ويعرّوا أجسادهم للشمس. .

المطلَّقة الولهى بحثاً عن مقيِّدها الجديد، من جزيرة إلى جزيرة ـ مربيّة الأطفال، محظيّة السمسار، حلاّق النساء المتصابي، عازف الجيتار المدمن على المخدّرات، والممرّضة الهاربة من عالم الآلام.

توحّدت أقدارهم لهذه المرّة، أسرتْ قلوبَهم موسيقىً واحدةٌ: أن يعرّوا أجسادَهم للشمس، ويتشرّدوا في جزُر اليونان.

النورسُ يتبع هذا الهودجَ الغريب الذي يفرّق من أمامه الأمواج، إلى أن تبدو الجزيرة في المدى السديميّ الأزرق تحت ستارٍ خفيف، متحرّك من الضباب بعد ساعات، كثدي امرأةٍ نائمة في الماء تحرسه غابةٌ من الصواري.

ويبدأُ جمع من الأطياف على الرمال، من باعة اليانصيب ونُدل المقاهي والكلاب، بالتململُ وراء سياج الجمارك عندما ينهض من كرسيّه متثاقلاً دركيٌّ مترَهل كدلفين عتيق، ويفتح لاستقبال سفينتنا بوّابةَ الميناء ملوِّحاً لقطيع السيّاح الجديد بسلسلةٍ ضخمة من المفاتيح..

أغنية للسائر إلى نهاية القرن

ستسمعُ الريح
إذا سرتَ هذا المساء
حيثُ لا يسير أحدٌ سواك
عندما تأتي
ضاربةً من جهة المذابح وساخنةً كأحشاء آب
لترفعَ جريدةَ الأمس من بين قدميك
وتصفعَ بها الجدران
أو تجعلها تلثم وجهَ الإسفلت
مرّاتٍ عديدة ـ

الريحُ ترفعُ الجريدة
والنارُ في كلّ الجهاتِ
داخلاً وخارجاً حيثما سرتَ هذا المساء
تلتهمُ الناسَ والبنايات

لكنّها

لا تحرقُ الأسوار. . .

الوجه الرهين

تسيرُ واحداً من العِباد
في الزُحام الذي يملأ الطرقات. .
الثعلبُ يسعى في إثر فريسته، تمشي
شبهَ نائمةٍ في سبيلها، والكلبُ ينبحُ أمام القافلة.
أو تجلس كعادتك في كلّ أمسيةٍ
أمام شاشة تلوّنُ لكَ الأخبار
تلك الحِرباء الألكترونيّة، ذلك الجدار الشفيف
كوجهك الرهين حيث تحبُّ الاختباء: بابُكَ محصّنٌ، وإليكَ
ما من طريق. لا مَمرٌ من هنا
إلى هُناك.
إذا قالوا: هناكَ، في الجنوب، نارٌ كبيرة
والشعبُ يهربُ في كلّ الجهات
لأدرتَ وجهك نحو الشمال
إذا قالوا الآن

تغيّرُ كلُّ إشارةٍ مجراها
وبينك وبين ألسنة اللهيب، وبينك وبين الرصاصات
مسافةٌ لم تعد تراها ـ مدينةٌ تُبادُ عن بكرة أبيها، تصعدُ
الآن من أشلاء ضحاياها
والآنَ يرجمُ الأطفالُ وجهَ يهوذا في كلّ مدينةٍ بالحجارة
لمضيتَ تدقُّ كأنك ساعةٌ مكوّكةٌ على نفس الوتيرة. . .
في كلّ الملّمات، برهنتَ أنّك ندٌ لأيّ ثعبانٍ
وتبيّن أنّك صُنو الدودة.
من طوكيو إلى نيويورك، منذ بابل وروما: سمينٌ كجرذٍ
في زمن الطاعون.
حيث يغرق الآخرون في الطوفان، تعرف أنت كيف تطفو
كالفلّينة على الأمواج.
أعرف أنك حاضرٌ كلّما أحسستُ بالقشعريرة
تهاجمني في وضح النهار. .
حبيبُ الوُلاة الوليُّ في كلّ مكان ـ
حيثما نهضت خرابةٌ، في مكان البيت المضاء
حيثما حامَ فوق وجه الطبيعة الغُراب
حيثما وُجدتْ هذه الأشياء

أنت ذو الوجه الرهين

أنت أيضاً هناك . .

تسيرُ، واحداً من العِباد

في الزحام الذي يملأ الطُرقات.

لكن أن تسهرَ قلقاً من أجل البيت والسيّارة

وتتفانى في تأدية الوظيفة بينما تُحسّنُ سلوكَكَ في السرير

قد لا يقدّمُ برهاناً كافياً على أنّك لستَ واحداً من الأموات.

بعد القيامة...

(مرثية إلى الأحياء)

ستذكرُ كيف كانَ المذيع
ينقُّ بالأخبار كالضفدع في كهفه الشفّاف
ويُطلق فقاعاتِ الموت من فمهِ
متشدّقاً عن مزايا
التكنولوجيا
في صنع الأسلحة الفتّاكة
بينما ترى التاريخَ في عينيه الفارغتين يَدْمى
ونهرَ الدمِ يجري. . .

ستذكرُ ولن تنسى
ولن تريد أن ترى ما تراهُ
ستذكر قوائم إحصاءاته السهلة الجرَيان
على زجاج الكومبيوترات
وسوف تلاحظُ كيف يحاذرُ أن يقول

كم أمّاً وطفلاً من بلادك
يموتُ في كلّ غارة.
ستذكر الألوانَ، والإضاءة القويّة، والمكياج الثقيل.
إنّكَ لن تنسى
بريقَ النشوة المخلوطَ بالامتعاض حين سرى
في عين بائعِ السلاح الأشكنازيّ بينما هو يدعو مجدّداً
إلى تصعيد المقتلة
ويحذّر من التهاون في قَصف المُدن العراقيّة
سواءً في الليل أو النهار...

لن تنسى الدلائلَ والحركات
أنت الذي حلمتَ في كلّ شارع بالقيامة
وسبرتَ العارَ في كلّ وجهٍ...
ستذكر أمّ الأربع والأربعين
وكيفَ تسعى!
ستسمعُ محاضرةَ الجامعيّ المأجور، وتلمحُ وجه
اليربوع المُداجي
وتُقابُل وكيل العنكبوت
في ركنٍ من قاعة المؤامرات.

ستذكرُ عَيني الذُبابة
التي لا تبرحُ عرشَها في بيتِ الخلاء!
صِفْرٌ لهذا التاريخ، لينتهِ القرنُ العشرون
لتسقطِ الصخرةُ على رأس الأفعى.
ستذكرُ الكلمات
وكيفَ تباع في كلّ سوقٍ ومبغى وجريدة.

راغبون كلُّهم، يهوذا منّا كما يبدو
كليوباترا تُرتّق مرآتَها
بانتظار القيصر
والثعبانُ يقبع في سلّته آملاً
كأنه سقط لتوّهِ من باب سريّ في التوراة

(«أسَدَ الترابِ» -
كان يسمّيهِ العراقيّون القُدامى!)

لتسترجعْ تكشيرةَ النصر والابتهاج
بموت الأبرياء في وجه المطيّة البلهاء
عندما جاءت إلى واشنطن كَمِمْسَحةٍ، للزيارة.
ستذكر كيف استقبلها سيّدُها قائدُ المرتزقة

ونظرته الأخرى تقول
هاهو الأعرابيُّ الطيّبُ الذي
نَصبناهُ لخدمتنا هناك، انّه وفيٌّ
يحبّ التقدّمَ، ويريدُ أن يشتري منّا بعضَ الحضارة
لذلك سنعلّمهُ كيف يستعمل الكومبيوتر
للتفريقِ بين الكُمّثرى والبِراز!

لن تنسى نظرتَه الأخرى، وأنّ هذا ما تقول.
كيف تزدحمُ اللحظةُ بثقل العالم المقتول.
لحظةُ الألم المتأصّلِ في قلب الساعة المقهورة
حين يسبح كلّ معنى
في بركةٍ من دمهِ، صفرٌ له...
ستنسى ما يهذرُ به لسانهُ الجسورُ
لتذكرَ ما يُنكرهُ قلبُه الجَبان:
لتسقطِ الصخرة...

ستذكر الأخاديدَ
على كلّ شاشةٍ بذيئةٍ في الغَرب
عندما تبقر مُدنَ الطفولة، والجسورَ عندما تتدلّى
كأضلاعِ ربٍ قتيلٍ فوق دجلة والفرات

ولن تنسى. . .

قال المذيُع أنّه يتوقّعُ سقوطَ المطر
فحلمتَ في تلك الليلةِ بالطُوفان.

شباط ـ نيسان ١٩٩١ سان فرانسيسكو

المحطة

تمشي، فتدفعك الريحُ من الوراء
باردةً كأنفاسِ مقبرةٍ
من نفق المترو نحو مطلع الدرَجِ:
عامودٌ أسطوانيٌّ تغطّيه الإعلانات
عن كل شيء من أحذية النساء إلى مواعيد المظاهرات ـ
كُشك السجائر حيث تشتري علبةَ الدخان
وتقرأ بعضَ العناوين
عن أرضك البعيدة حيث الحربُ
لا تنامُ، منحنياً قليلاً تحت ثقْل الحقيبة
تحت ضربة المناخ البارد عندما يلسعُ خدّيك كسوط حوذيٍّ
ميّتٍ في خارج المحطة...
صيحاتُ المسافرين
ما زالت ترنّ فارغةً بين الأنفاق حتى بعد أن تفرّقوا
في الطُرقات الجانبيّة ولن تراهم في هذا العالم، على الأغلبِ،
ثانيةً

لكنّ تحت دمائك عاصفةً من صيحاتٍ أخرى
لا تكفّ عن الانقصافِ
كالرعد في الجبال التي عبرتها ليلةَ أمس
نصفَ نائم
آتياً من إسبانيا إلى فرنسا، بالقطار ـ
لأنك تمشي
والوجه البشريّ جريحٌ
يأتي لينام تحت أقواس المحطّات..
لأنّ الوجه جريحٌ يأتي لينام، وحياتُك نهرٌ من الطين والدماء يجري
تحت أقواس المحطّات، بينما ينصبُ الموتُ شاراتهِ
في غابة أيامك أحياناً للتذكير بوجودهِ
من بين الأشجار وأنتَ تمشي
والصباحُ ينزلُ ميّتاً كرداء أرملةٍ
على سياج المنافي، تحت صفوف النوافذ الأجنبيّة.
والروحُ تصارعُ الأسلاك.
والأرض تدور...

ابنة البقال الحسناء

بأيّ سهولةٍ
ينحرُ العالمُ حلَمنا الجميل
وكم مرّة، على يد الصُدفة العمياء
أو سكّين الغانمِ والأبله والجير -
أن نعبر النهرَ مرّتين، وينتهي بنا المطاف
على هذا الشاطئ الموبوء، في هذا
الحلم المليء بالدُخان. . .
نفتح باباً لا نعرفُ إلامَ يُفضي
ونجهلُ أين تقودنا خطانا.

أنا في زاويتي أتَحا. . .
أتحاشى أن تلتقي بعينيك عيناي
وأغيّب كأساً مغشوشةً أخرى
كلّما فكّرتُ بأنك قد تذكرين

إذا لم تكُنِ الأيام في عصفها المجنون
إذا لم يكن نهر الرجال عبر الليالي الغَفْل أودى
بأيّة امكانيّةٍ للذكرى
بعد أن خرّبَ سدودَ الذاكرة ـ
وكنتُ سأمرقُ عبرهما ساهياً كالغريبِ
لو لم أرَ فيهما خرائبي . . .

هنا انتهينا . . .
بأيّ سهولة ينحر العالم حلمَنا
وكم مرّة .
وكنتِ أنتِ، ماذا؟ شهرزادَ الطفولة؟
غرقتْ في عينيها المراكبُ حتى قبيل إبحارها . . .
بَذْرُ القبيلة عارياً على السطوح
في ليلة صيفيّة .

باكراً منّتْ عليكِ الطبيعة
بكلّ ما في الأنوثة من مزايا؛
يتبعك الرجالُ في الأزقة وأنت مازلت صغيرة

بعيون نصف مغمضة يموّنها توق الكلاب
حتى أنّ واحداً منهم في إحدى الليالي
دبّر خطّةً ذكيّة للاختطاف
لكنك كنت خطيفةً
ذهبتْ برضاها
ذاتَ ليلة قمراء، في سيّارة أُجرة
مع الوافد الجديد على المحلّة.
قيل إنّه دخلَ السجنَ أكثرَ من مرة
حتى أصبح السجنُ فندقه المجانيّ يزورهُ
متى شاء، وقيل إنّه ذئبٌ في جلد خروف
له مَسكنة المحتال، لكن طعناتِ المعارك الليليّة
تركتْ في وجهه اكثرَ من علامة
تدلّ على أصوله النبيلة...

تقفزينَ مأخوذةً عند وصولهِ
وترمين الستارَ، هو المتكئُ كطيفٍ وفيٍّ
أمام بابكم لساعات، في يده ساعة مسروقةٌ
تتدلّى من سلسلة

يؤرجحها أمام عينيك كلّ مساء
ويطلّ من جيب سترته منديلٌ ملوّثٌ
يلائمُ بدلةَ الجبردين المستعارة.

ذهبتْ نصائحُ البقّال مع الريح.
ذهبت، حتماً، مع الريح وتجرّعتُ كأسي
الأخيرة...
إن كان مقصّراً، أنت الدليلُ على
تقصيرهِ سوى أنّ العالمَ في جَوره كان
أقسى؛ أنتِ الدليل
تقفزين مأخوذةً عند وصوله، وترمينَ الستار!
لكنه سرعان ما أزاح، ذات يوم
عن كل شيء
لعينيك العسليّتين، النِقاب.

بأيّ ضراوة أُزيل خَتمُ البراءة، واستبيحت
الأسرار.
مزّق كلّ غشاءٍ

ثم دحرجَ الصخرةَ على القبر
ليكشف أخيراً عن هويّته الحقيقيّة
وأصبحَ ثعلباً أمامَ ذئب آخرَ
هو في الحقيقة سيّدهُ، له طاولة خصوصيّة
هناك في مركز الملهى
حيث يتربّع ضفدعيّ الأبعاد تحومُ حولَهُ
حَلْقةٌ من البغايا يضحكنَ لنكاته
البذيئةِ ويُشعلنَ لهُ السيغار. . .

الوجه

ذلك الوجه
الذي مررتَ بهِ
على الجسر
فوق مقبرة مونمارتر البيضاء
المطمورة تحت الثلج بكلّ موتاها
لامرأة باكية تعضّ يدها
جاهلةً أين تسيرُ
لا
تأبهُ للريح
إذا رفعتْ ثوبها فوق ركبتيها
لا تأبه للمارّة والسيّارات
منذُ تلك اللحظة أصبحتَ أسيراً لهُ
حتّى صرتَ تكاد تراهُ
كلّما عبرتَ أحدَ
الجسور.

مرثية البيت

كنتُ قبل أن أغادرَ البيتَ
أُصغي
إلى جسَدها النائم قربي كأنه نهر يجري في أُلفةِ واديه،
وأسمعُ النشيج. . .

أسمع تحليقَ أجنحةٍ
خفيّة تعبر فوق رأسي
وغناءَ امرأةٍ ساهرةٍ على ضفّةٍ في بلادي
تشكو من غدْر الزمان، ومنذ تلك اللحظة كنتُ أمضي
ناسياً كلماتي إلى معاركي وأيامي
ومنذ ذلك اليوم
أشربُ الماءَ الذي لا يروّيني
ولن يغسلني. . .

شجرة أمام بيت

أرى شجرةَ السَنط الكبيرة تمَيدُ إلى الجانبين في الريح
مسعورة الأوراق كامرأة مجلودة تحاولُ الإفلات
ثمّ تهدأ شيئاً فشيئاً
كأنّ عاصفةً حُبلى بويلاتها أسقطتْ حِمْلها الباذخَ في الطريق. . .

أرى كيف تعودُ أوراقُها
إلى ارتعاشها المألوف كحراشف سَمكة مذعورة أفلتتْ من يد الصياد
وكيف تستوي أغصانُها ثانيةً على لسعة البرق الصامت كلسانٍ أفعى
قبل أن تنشقَّ صخرةُ الأفقِ نصفين وينهلَّ منها المطر.

مراجعات

مراجعاتٌ مليئة في هذا الليل، حسابٌ لولبيّ
يترك دوّاماتٍ من الأرقام
تنتحر على شواطئ الكلمات كمراكبَ تشتعلُ في الأفق
لأوهامٍ تحاولُ استعادةَ أعراشها
وقد تنجح، أُسْوةً بهذه السبُل التي تنادي
مطالبةً بالأقدام من جديد.
مضى الآباء منذ زمنٍ، واختفى آخرهم خلفَ الهضاب
لكنّ الجنود بقيوا؛ دماءٌ في كلّ مكان، حربٌ على كلّ جبهة.
آلهةٌ هنا وهناك
تنطفئ بسرعة الإشاعة أو المعجزةِ المُداسة تحت الأقدام
وهذه الكلماتُ وحدها
في نافورة الضوضاء أو جحيم التجارة
بين جدرانٍ تقوّضت وأخرى ستبقى واقفةً
هذه الكلمات وحدها في عالم متبجّحٍ وقحٍ، في جمجمة القيصر

أو ضحكة بهلولهِ

لا تيأس من طعنة الرغبة المتجّددة في مركز الجسدِ

أو قيام الميّت من قبره: وحدَها

لا تفلتُ الزمام.

عينا امرأة في التيه

«عيناك غابتا نخيل ساعة السَّحَرْ»
السيّاب

الآنَ والمطرُ الرتيبُ
يجعلنا نستحضر أشياءَ كدنا ننساها
والضباب يلفّ هذه المدينة
بعد أن غطّتها الثلوج ونامتْ
مثل أميرة، مثل أميرةٍ كانت متسولّةً في النهارِ
هل نذكر كم متاهة كان علينا عبورها، المسالك التي
أوصلتنا، المعابرَ المنهارة. . .
أنتِ منذ سنةٍ
ولي عشرون في الطواف.
تكلّمي إذاً
خبرّيني حتى يحين الفجر إن شئت،
عندما ينسلّ من مفرقٍ في الستار، وتبيضُّ من حِولنا الأشياءُ
ساعةَ السحَرِ وقولي

قولي كيف جئت، بأيّ طريقٍ
كم «تأشيرة» تزينّ جوازَكِ الآن.
كم حارس فالت الفكّ تملاّك على مهله بعينيّ ذئبٍ
كأنّك شاةٌ، كم جمركيّ عبثت يداهُ
بأشيائك الحميمة، في أيّ المحطات.
اذكري كم من الحدود عبرتِ
وقطعتِ من المسافات حتى وصلتِ
من قريتنا المنسيّة في طرف من بادية العراقِ
إلى هذه الضاحية المسلولة
في «عاصمة الضباب»؟
خبرّيني عن هذا الزمن المحتال
واذكري كلّ العقَبات...

بينما يتحدّثون هنا
عن الطقس الرديء دوماً
أو تدهور العملة المستمرّ
بينما يتحدثون عن موت ممثّل أو غراميّات أميرِ
كيف نستعيدُ نحن العالمَ الذي كان!
لندنُ في أعيننا قلعةُ أشباحِ.
«التيمز» مجرّدُ جدولٍ

من الحمأ الكسول
لا يشبه كثيراً نهراً لنا اسمه الفرات،
ذلك الهدّارُ
الذي نهضنا من ضفافه يوماً
ننفض من لحمنا الساخن حبّاتِ الرمالِ
وعُدنا إليه بعد ذلك مِراراً، وها نحن ندورُ
في دوّاماته الآن، عارفَين أنّ هذا
العالمَ المقرور حيث التقينا
بصُدفةٍ لا تصدّق بعد كلّ هذه السنينِ
وانتصرنا بذلك قليلاً
على «هذا» الزمانِ، ليس غيرَ محطّةٍ
للانتظارِ، ونعرفُ أنّ أمامنا رحلة أخرى
إلى عالم تالٍ
ونعرف أنّنا نُبحرُ إليهِ.

إلى المغنّي في وليمة السّخرة

أوهِمْ صوتَك أنّ العالم مازال يحبّ
ويطلبُ أن يسمع أغنيةً وينادي أحَداً خلف الأسوار
فصوتُك درويش حافٍ يعبر بضعَ تكايا وكوجهكَ يشعلهُ البرقُ
ولكنّك تكذبُ فالليلُ طويلٌ حيت تغنّي. . .

بعد الألم

بعد ضربة الألم الخاطف كالبرق
وانتشار ناره الزرقاء في سماء رأسي

بعد أن تكتسي الأشياء
بنارٍ فوسفوريّة هادئةٍ وتبحرَ فيها

كمركبٍ بلا ربّان رنّحتهُ ارتطامةٌ
قويةٌ بالصخْر

نحو هاويةٍ تتقاطعُ في أسفلها
شرائحُ بنفسجيّة من النور، وأجسادُ ملائكةٍ

لها أجنحةٌ مقروحةٌ
لا تكفُّ عن الاختلاجِ والخفقَان. . .

الشِعر حديثُنا، وليس لنا حديثٌ آخر
كيف يولدُ ويموتُ
كيف دفعوا للنُدّاب أجرَهم بعد الجنازة
وأقفلوا الباب، لكنّهم نسيوا
أن يدفنوا الفَقيد..
الشعر حديثنا، كيف يحسبُ أيّامَهُ
من ماتَ من زمنٍ، يذرعُ المحطّةَ بانتظار قطارٍ
ولا أحدَ سيأتي
ليطردَ السماسرة من المحراب..
كيف أنّ شاعرَنا الذي تسبقه شُهرتُهُ
ويلتفّ بها كالوشاح حتى في عزّ الظهيرة
عندما يكتبُ بريشته التالفة، في العُطل الرسميّة عادةً
عن مواضيعه الأثيرة، لا يعرفُ أننا
أتينا، منذ زمنٍ، على الرغيفِ

بينما كان يتحدّث عن الخميرة. .

ـ إذاً فهو ما زال يحتلّ مكانَ الصدارة

في زوايا «الصفحات الثقافية»؟

ـ ويلوكُ نفسَ الأعشاب. .

المغنيّ الغنيّ، البهلولُ والنبيُّ، لم يَعد يسحرنا لسانُ الخطيب

والأوهامُ المُتاجَرُ بها في جماجم المحرومين كلعبة المرايا

لم تعد تسلّينا حتى بالغضب. . .

هكذا كنّا

نغتصبُ صمتَ الليل الذي خلا

إلاّ من سيّارات عابرةٍ أغلبها للأُجرة

نلمحُ فيها سكّيراً يكلّم نفسَه أو رجُلاً يداعبُ امرأةً

قبل أن تختفي في الظلام، ومازلتُ أستعيدُ صوتَه الاليف

صوتَه المتنمّر في لهيب المنفى

في الطريقِ

إلى فندق «كوجاس» حيث أنامُ

ليلتيَ الأخيرة. .

هناك أومأَ صديقي

باتّجاه السوربون حيث وصلنا

إيماءةَ الحنين، إلى طالبٍ يكتب شعاراتٍ

بفرشاة صبّاغٍ على الجدار

شاخصاً بعصبيّة إلى المُداهمة

لكنّه لا يأبهُ بالسابلة. . ـ

وهذا ما كُتِب على الجدار:

لنقوّضْ هذه الأنصاب

فمَنْ شُيّدت باسمه لم يعد من نُريد

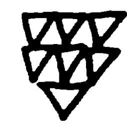
ولنستعملْ حجارتَها في بناءِ كوخٍ آخرَ

لمتشرّدٍ جديد.

إلى زائر بعد القيامة

إن جئتَ لتطرقَ في آخر ليلِ
التاريخ على البابِ، وقد نامَ الجلاّدونَ
على أشلاء ضحاياهم
إن جئتَ اخيراً
لتحقّقَ حلُمَ التعَساء المجروحينَ
بآلائِك
بعد نُزوح الطوَفانِ
وآخرِ صرخات الحرب. .
وإن فتحتْ لكَ حوآءٌ
تفركُ ناعسةً عينيها
فأزحْ حوّاء إلى جانب
واركُلْ بحذائك
(وأَصِبْ!)
رأسَ الثعبان
ليعودَ إلى كهف التوراة على عَجلِ

ثمّ اغرزْ عِقْبَ السيجارة
في شفتي آدم
وأسأل هذا المخلوقَ لماذا
وابدأْ بالاستجواب . .



عُقدة السندباد

كان السَندباد يصلُ دائماً
إلى تلك الدورة الموسميّة التي تأتي
بتوقيتٍ أكيدٍ
لتجرشَ دمَهُ الخامل من جديد
كأن ساحراً متحمّساً يُديرُ عجلةً للمصائر في الخفاء!
إلى ذلك اليوم الذي يقولُ
لنفسه فيهِ:
«لم تعد تُفيدنا الأعذارُ
بعد الآن، لم يعد يُفيد البحّارَ أن يتظاهر بأنه
حمّالٌ يتبع أذيالَ الجواري
لقد حان الوقت، وسمعتَ
النداء.. إلى البحر، إلى البحر أيّها السندباد».
بعد أن ظّل يُصغي
إلى الريح التي تهبُّ من البحر ليلاً

نافخةً ستائرهُ، كأنه يُصغي إلى صوت
الزمان ويلمحُ واجفاً وسط لياليهِ
في أحلامه الرتيبة عن المراكب والأمواج
العالية كالجبالِ، ذلكَ الخيطَ الأزرق البتول يدعوهُ منتحراً
على شفرة احتلامه، فيُلقي برأسه أمامَه لآخرَ مرّة
ويشدّ شراعَه في النوم ليعودَ إلى الماء
وربّما إلى قدَم الرخّ المجنون
عندما يؤرجحهُ مرّةً أخرى
كطفلٍ عَبْرَ الفضاء.

كلام من البصّارة

(للمولود في برج الدلو)

إفعلْ ما تريد. .
يمّمْ وجهكَ صوب جهةٍ
غير معلومة، واسبح في جميع الأنهار إن شئتَ
كُن هبةً لكلّ تيّار لكن لا تتلكأ في باب الساحرة
لا تجرِ وراء بريق المرآة. .
فجرُك قصير وثابتٌ
شمسُك تحتمي بأكثرَ من ستارٍ.
كلّ غاية سهرتَ من أجلها الليالي، كلُّ محالٍ
يسهلُ الآن انتظارهُ، بعد أن قطعتَ حبْلَ الحيرة
والتقتِ المرساةُ بالقاع. .
أرى هنا سفراً إلى البعيد
لكنّ البحر الذي تنوي عبورَه لا يضمرُ غيرَ عاصفةٍ
ويْلَ من يلاقيها وحدَهُ في العراءِ

وها أنت وحدك في سفينة، وأُصدقكَ القولَ

يا ولدي

أنّ البرقَ ولا ريبَ سيملأُ الآفاق

لكنّه لن يكسِرَ الصواري.

مدينة

«المدينة كتابة»

رولان بارت

ستُخلف وعدها

أو تستميتُ لكي تسلّينا بسرٍّ

لم يعد سرّاً، كأيّ مدينة أخرى.

كأي مدينة أخرى دخلناها

وعرّتنا بأيدينا: ضحاياها، ولكن سادةٌ فيها

تهدّمنا، ونبنيها..

هناكَ الليلُ:

قتلاهُ، مشاهدهُ

مكفّنةً بأضواء النيون ـ

هناك وجه السرّ (مهتوكٌ

ومغتصَبٌ إلى حدٍّ، كما قلنا) تحاول أن تخيطَ

له بكورتهُ

بموسيقى مدجّنةٍ، أصابعُ عازفٍ
في البار، أسطوريّ!
وراقصةٌ لها سِعرٌ تخدّرُ شوكةَ القلبِ
ولكن محضَ تخديرٍ. .
وعند نهاية الليل تقدّم لي
هداياها، وجُدراناً مصوّرة لتنويري:
عجوزٌ يرتدي بيريّةً حمراءَ في أعتاب ملهى
أو لعلّه بابُ ماخورٍ، ينادينا
ينادينا بإلحاحٍ
ينادينا إلى عالمه السفليّ
منحنياً بأُبّهةٍ ملّفقةٍ لِمن يأتي
ومن يمضي، لهذا الظلّ أو ذاك
لظلّ عابرٍ ـ أنتَ؟ ـ وحيداً تحت بابِ
السينما
حيث يلوّحُ في الهواء، مسدساً
بطلٌ
تحيطُ به الخرائبُ، والمباني
تحت رجْله في اشتعالِ

بينما امرأةٌ تلوذُ بصدره العاري
مولّهةً وساحرةً، وصاغرةً!
تكاد تموءُ كالقطّة.

تصاويرُ..

وفي الأعلى
مزيدٌ من تصاويرَ - مغنٌ ضاحكٌ ما
(مارتنيكيٌّ؟) له صفٌّ من الأسنانِ
يوحي في تراصُفِهِ بمدْرَجةِ البيانو
أو سياسيٌّ يُطلّ على الجموع بوجهه الصاحي
وإعلانٌ تمزّقَ، وامّحى الوجهُ
ولم تبقَ سوى الرَبطة.

إلى مغني «الكانته خوندو»

(في ألمريّة بالأندلس)

أمام هذا الجدار، أمام جدارٍ
من الوجوه الغريقة في الدخان مغمضَ العينين
بانتظار أن يبدأ عازف الجيتار، ومسبلَ اليدين فوق ركبتيك
على كرسيّ صغيرٍ من الخشب...

تُصغي إلى نَغمٍ
لا نسمعهُ، آتٍ
من قرارٍ ليس بوسعنا أن نخمّنَه؛ تُصغي إليهِ
آتياً من دياميسَ مجهولةٍ في القلب حيثُ
تعرفُ كيف تحلّق وحدَك ـ
حتى إذا أخذتك الرِعدةُ ورمتكَ
بعد التحليق هناك مِراراً
رأينا كيف تعبر ضربةُ الآلام كظلّ سحابة في الظهيرة

من وجهك الشاحب المتوتّر
إلى صدرك المستعدّ لطعنةٍ أخرى.

رأينا كيف تستقبلُ السكّين
فالطعنة لك، وحدَك الحيّ هنا: لكَ وحدكَ أيها المغنّي
يُفتح هذا الكتاب بعد أن صار لحماً
تُقلَّبُ هذه الصفحةُ من اللهيب.

ويمكنك أن تسبح أمامنا
في ناركَ الأنيسةِ هكذا
تمدُّ صوتك الجريحَ جسراً إلى بلادك حيث لا
نجسرُ أن نَرود -
إعلان مخاضاتٍ، والبُشرى
في ساقيةٍ تجري، أم أنّ شظايا تتقلّب بين الأحشاء
حتى تولد في دمائك الأغنيةُ العميقة -
خبيرٌ بتفصيل الجراح، من أيّةِ
مدرسةٍ للمواجع أتيت
من تبكي ومن تدين، لمن ترثي -
ربّما لمن مات، أو من لا يولدُ
ولا يستطيعُ أن يموت؟

أيكون هذا الهلام المجبول
بالخِرَق المتبقّية من تضميد الجراح
هذا التنّين الذي يمجّ دخانَهُ
محنيَّ الرّقَبة بانتظار السيف الساقط من شفتيك
إذا تعانقُ هيكلَ الآلام؟
هاهوَ يركعُ في فضاء الحانة
محنيَّ الرقبة بانتظار السيف منذ الآن ـ
إذا كنتَ تريد أن تُبيح دمَهُ، فهو لك:
خذه، كرأس عدوٍّ بضربةٍ وحيدة.

فاس ذات الأسوار

هنا أسروا السراب
مثل ملاكٍ طائش ضلّ الطريق
إلى فردوسه النائي، وشيّدوا من حوله الأسوار.
هنا كفّ التاريخُ عن الدَوران حول نفسه أخيراً
أمامَ باب ابن خلدون، بعد أن عضّ ذنبَهُ
واستكانَ، كما يفعلُ الثُعبان.

على باب المتاهةِ، هذا الباب
تصطفّ قوافلُ السيّاح بألوان زاهيةٍ
كمئات الببغاوات، حولَ دليلها
السيّاحي، وباصاتها المكيّفة الهواء
مدجّجين بأحدث الكاميرات
لاصطياد أكبر عَدد ممكن من الطلاسم والتُحف المحليّة
قبل حُلول العشية...

في هذه الواحة التي تتوسّط الصحراء
كعين نائمٍ يستهدي بها الدراويشُ من الآفاق
أنوارَ انخطافةٍ أخيرة، والباحثونَ عن سرّ أو سريرٍ
أو رغيفٍ، على آخر رصيف من أرصفة الأبديّة
جئنا نبحثُ عن «طوق الحمامة»
ووجدنا «الفُتوحات المكيّة» -
الشجْرةَ المولودةَ من سور الحجارة، والمقهى
التي تجري من تحت كراسيها الأنهار..
هنا يتبنّى الفقراء

كلّ ما توفّر من الخرافات
لئلاّ تظلّ يتيمةً في العراء، أما الفارسُ فيذبحُ التنّين
دون أن ينزل عن ظهر جوادهِ
لينالَ يدَ الجارية أو الأميرة
في مملكة النعناع الأخضر
والبابونج، والزعفران:

متاهةٌ كنتَ فيها الدليلَ
يا محمّد الشركي يا صديقي، تعرفُ الدربَ
من حصبائها المبلوّة عبر الدهور تحت الحوافر والأقدام

أو من خرير الماء المسنّ في نافورةٍ
لا تكفّ عن الصلاة في كل منعطف تالٍ ودورة ـ
«اشرب يا عطشان» في أعتاب التكايا
زمرّدُ الآيات في مرايا الفُسيفساء
خضرةُ الفراديس في جبّة الدرويش
حين يشرب من سبيلٍ، فهو عطشانُ، على باب الله
لكننا ننتهي
على «باب المحروق» في كلّ مرّة
على «باب المحروق» في كلّ مرّة نواجه أفْقَ المقبرة من جديد
حيث دفنوا لسانَ الدين بن الخطيب
بعد أن تحوّل إلى حفنة من رماد
وتجلسُ النساءُ سافراتٍ
بين القبور
ويلعبُ الأطفالُ
في التراب. . .

مِكناس

مِكناسُ للآتينَ
من بعيدْ
تبدو كآجرّةِ بيتٍ
طائفٍ تحت اللهيبِ
عندما تصبغها يدُ الضُحى
غافيةً، عاليةَ الأسوارِ
في أبوابها قوافلٌ تنامُ
بانتظار شيءٍ
تحت أقواس القِبابِ ـ
فرسٌ
من دون سرجٍ
أو لجامٍ، في الظلال، تستريحُ
ونساءٌ بربريّاتٌ
يبعن خِرَزاً، أسْورَةً
وبُسُطاً سحريّة للعابرين . .

نهارُها واسطةٌ
للاقتراب من حدود ليلها
وليلُها فتيلةٌ
أضرمَها بدرُ الصيامِ
للنيام الصائمين فوق أسْطح البيوت:
عيدُها مؤكّدٌ عبر الليالي..
ضحكها بُعْدٌ إضافيٌّ
يلوبُ في مدى أحزانها، وعُشُّ مالك الحزين
أكبرُ من دائرة البريد.

ساعة التقمّصات

١ ـ في باريس

للحبّ وجهٌ غائبٌ
لكنّك تراهُ كلّما اقترب المساءُ
في كلّ مكان
كلما سقطتْ صورةُ النهار من إطارها
بلا أبّهةٍ، على صفحة الجليد، مرّةً أخرى
حيث تطول ظلالُ العابرين بشكلٍ خرافيٍّ
وتنعكس المداخنُ من فوق مبانيها
الزريّةِ في زُرقة الثلوج
كأنها أبراجُ كاتدرائيّة نوتردام
قبل أن تختمر جثّةُ ليل آخرَ
في ثُمالة الغسق الأخيرة.

الغسقُ امرأةٌ
تلتفّ بمعطف كبير من الفراء ـ

متشرّدٌ طامع بالدفء يقتفي خُطاها.
إنه ساعةٌ للتقمّصات، لتجسيد النوايا
لانتقاء الجمرة الباقية
في صحن الرماد، لتأمّل صاريةٍ مغروسة في رمال شاطئٍ
طَوالَ ساعات، أو شراء حذاءٍ جيّدٍ
لاقتحام أمسيةٍ مطيرة.

خفتَ الضجيجُ قليلاً
في طاحونة المال، وخفّ إيقاعُها
البربريّ المولغُ في الجماجم طول النهار.
هدأت نوافير فرساي، وانفضّ مجلسُ ميترانَ وشيراك.
تَعِبَ العبيدُ كما يبدو
من التجديف في مركب التجارة السكران
وانتكستْ حتى صباح غدٍ، رايةُ الربح والخسارة.

حان للمقامر أن يخرج من وِكرهِ
حالماً بأنّ الحظّ ملاكٌ
يكمنُ هذا المساءَ بانتظارهِ
في مُخْمل المائدة الخضراء، وللبطلِ أن يمضي
بخوذته وسيفه وحصانهِ

ليُنقذ آخرَ عذراء من بقيّة أوهامها
ويصطادَ لؤلؤةً من أقرب البحار. . .
حان للمدعوّ فرانسوا فيّون
أن يخرج من حانة يرتادها اللصوصُ والشعراء الموتى
متسربلاً بمعطف الظلام، ليسرقَ خاتَماً
لائقاً بعرسه النهائيّ
من أصابع الأسقُف المأفون
وطفا بودلير على مياه السين
حاملاً رأسَه الناريَّ على محفَّة القصيدة. .

في نَفق المترو
يوقفني رجلٌ حول جبينه ضمادٌ ما زال يَدمى
ليطلب سيجارةً بإصبعين تؤشران إلى فمهِ
أو عَدداً من الفرنكات
وقطارٌ آتٍ من أحَد الأنفاق
يُغرق بهديره كلماتِنا القليلة. . .
تجلسُ الحياة على مصطبةٍ
فوق الرصيف، مثلنا:
في يدها بطاقةٌ، وقناعُها البالي
تحت إبطها، بانتظار قطارٍ

ويمضي الزمانُ واثقاً إلى مواعيدهِ
لكنّه ينشجُ في كل لحظةٍ
من الوريدِ إلى الوريد.

٢ ـ في ملكوت تولوز لوتريك

في موج الزمن البطيء
الذي يأتي بمزماره السحريّ
من لا مكان، ليسوق هذا القطيعَ من النيامِ
إلى متاهة النيون والمرايا ـ
إلى متاهةٍ لها آلافُ العيون
الراشحةُ باللهيبِ
تطلّ من جدرانها أشكالُ نساء
ماردات إلى اليمين
واليسار من «الطاحونة الحمراء»
حيث تنطلق الأقدام
والأيدي مدفونةٌ في الجيوب

في الزمن المتخثّر
بلهاث كلّ رغبةٍ كانت سجينةً حتى الآن
ينطوي العالمُ على سرّهِ

كشفرةٍ من الحمّى، في مُدْية المدينة المجبولة بالبريقِ
حاضراً، بلمسةٍ، للإنطلاق . .

هنا كان تولوز لوتريك
ذلك القِزم الشهير كما تشيرُ الإعلانات
يرسمُ مسحوراً عبرَ آلاف الليالي
علاماتِ الأرَق الدفين
في الوجوه الليليّة لراقصات الكان ـ كان
باحثاً فيها ربّما
عن ذلك الشيء الذي
تنطلق الأقدامُ باحثةً عنه الآن.

وما زال الزمان هنا
يُشعل أيّامهُ من أعقاب لياليه:
في الأزقّة الفرعيّة ما زالتِ الحجارة
تَصلُ إيقاعَها الوراثيَّ الرتيب
ما دامت هناكَ امرأةٌ
تحتمي بثمّة جدارٍ
وتسرُ جيئة وذهاباً بكعبها العالي
في وجه الغَسق البطيء الزاحف على بيغال . .

غيرَ آسفةٍ على النهار البليد الذي يموت
بشكل مبكّر في هذه الأرجاء
بل مشتاقةً لمقْدم الليل العميق
وريحه الذكيّة
عندما تُرشدُ أوّلَ السُكارى
إلى بابها المضاء، ولحمِها الساهر على مستوى الإمكان
من البيسترو القريب حيث تعلو أصواتُ المهاجرينَ
بأغنيةٍ جهيرة، ويسكرُ العمّالُ
على أرخَص البيرة..

الليل في نيويورك

تحتَ الضياء الساري من الباب
من باب المطعم إلى الرصيف
إلى الرصيف المقفر إلاّ من الظلال حيث يسفَرُ
أطيافَهُ الشتاء..
تحت الضياء الذي يسقط في الخارج على شَكل تابوت
تحتَ ذلك الضياء
أرى البهلولَ الملتحي
يسير جيئةً وذهاباً على صفحة الجليد
خائضاً في ذَوْبه العَكِر، لابساً دفّتينِ
من الوَرق المقوّى، كالدروعِ
وجهاً إلى قفا، تُعلنان
نهايةَ العالم الوشيكة
كما تنبّأت بها كُتبُ التوراة
ودعوةً إلى الخطاة للتوبة حالاً..
أراهُ كلّما مرّ بالباب

في معطفه العسكريّ البالي
على الرصيف المقفر إلاّ من الظلال
حيث يسفّرُ أطيافَهُ الشتاء
تحت الضياء الساري من باب المطعم إلى الرصيف، تحت ذلك الضياء.
وعلى زجاج الباب أرى
كيف تسيحُ قطراتُ المطر.

أمّا هي، ففي زاويةٍ
من زوايا المطعم شبه الخالي، وحدَها..
وحدَها تحت صورة القارب الشراعيّ
في تقويم الجدار (إعلانٌ سياحيّ عن الشمس
المشرقة في جُزر اليونان) تُديرُ ملعقةً برسغ نحيلٍ
تدير في الكوب ملعقةً برسغ شديد النحول
تديرُ ملعقةً في الكوب..
عيناها المشرقتان
بفعل الحبّ أو الكوكايين
بعد إيماءاتٍ خفيّةٍ لها شكلُ الكلام
تسر بلا وعي، كومض دخانٍ، من بين أهدابها
مانحةً لي

جولةً خاطفةً

في أعماقها المشرّبة بالإنخطاف ـ

عيناها تُنبئان بالشرق البعيد، سيماؤُها تقول

إنّها من هناك . . .

عيناها

سِيناءان

مازالت فيهما قافلةٌ

تبحث عن طريق إلى بئر الحيرة

وسُمرتها قد تكون لاتينيّة

لكنّ في ملامحها بيتَ أبيك النائي :

عشتار، إيزيس الباحثة عن الأشلاء

أو مجرّد حوريّة أخرى ما زالت تغنّي على ضفاف «الهُدْسُن»

الموبوءة

لعوليس المقيّد، مسدودَ الأذنين بالشمعِ

إلى الصاري . . .

هناك في تلك الزاوية

حيث القهوة

مازالت تُدارُ، ويحرسُ إحدى يديها

خاتَمٌ، لكنّه لا يجاهرُ بالاستحالة!

هي ونادلٌ زنجيّ يسلّكُ أسنانَه الجسيمة مصغياً بكآبةِ

إلى الأخبار، وأنا الذي أشربُ
هذه القهوة الموحلة المذاقِ
نخْبَ الريح التي رمتْ بي
على ساحل هذه الليلة، والملاكِ الأعشى الذي قادني
إلى هذا المكان، بعد أن عبرتُ البحار. . .
وفي الخارجِ: البهلولُ والشتاء.
في الخارج، يا ربيّ، بين ثنايا البُخار المتسرّب من
فوّهات السراديب والمجاري
أبراجاً شفّافةً تعلو
كأنما من قدور ساحرات مدينةٍ
في الأسفل، تَغلي
في ثناياه أوجهٌ شاحبة تمرّ، هياكلُ عظميّة
في معاطفَ من الجلد
تتسلّقُ سلالمَ للحريق
معلّقةً في جنب بناية، أو تأخذها المصاعدُ الأرضيّة إلى
محطّات القطار. .
رُعاةُ الليل الباحثون
عن بعض الخراف، أم عمّالُ النوبة الليليّة
ماضونَ إلى هناك ليكدحوا
في ذلك العالم السفليّ الذي لا ينام؟

كم جزّار يشحذُ سكّينَه الآن
كم خبّاز يحلمُ أمامَ فرنه هناك
بجبالٍ من أرغفة سرقتْ من كم فمٍ
في كم مدينةٍ أخرى
لتَشبع هذه المدينة التنّين. .
ليقتات خمبابا، ليتجشّأ غارغانتوا، ليرتوي بهيموث.
جيوشٌ من الخيّاطين في غاباتٍ من الثياب
تخيطُ ليلَ نهارٍ لتغطية العُراة ـ
أطيافٌ وقامات مسرعةٌ
نحو غاياتها المصيريّة بين دوريّة بوليسٍ
تزحفَ مبطئةً كالكوسج تحت العمارات
أو سيارة إسعاف يسبقها العويلُ
سَرعانَ ما يطويها الضبابُ
بين دفّتيهِ، كالكتاب.

النهر

بعد أن نام الأحياء
يسهر الموتى على ضوء القنديل
في بستان الفاكهة المهجور، يلعبونَ
الورقَ تحت الأشجار
وأنا أُصغي إلى النهر عندما يجري تحت نافذتي
وأسمعُ كيف يختلسُ الزمانُ خُطاه. . .

وحيثما قرأتُ آثارَهُ
كأرجُل الغراب في طين أيّامي
وخَطتْ شعري خيوطٌ إضافيّة من الرَماد.

العابرُ فوق المعْبر، يعرفُ أنّ القادمَ جاء
الريحُ لا تؤسَر بالشبَكة
وأنا

لم آخُذ الفَرس النبيلة بلِ انتهيتُ
إلى هذه الغرفةِ في طرَف المدينة
حيث أُصغي إلى النهر عندما يجري تحت نافذتي
وأسمعُ كيف يختلسُ الزمانُ خُطاه.

طبيعة الليل والنهار

تذكرُ العينُ ثانيةً
أنها عروسٌ لهذا النهار
يغمرها حضورٌ لا تعرفُ من أين يأتي
ويمرّ بأهدابها نسيمٌ
تجهلُ مصدرَهُ . .
نورٌ لا يثنيه شيءٌ عن الوصولِ
تشربهُ العيونُ التي حنّتْ طوالَ الظلامِ إليهِ
وترتاحُ في آلائهِ
الأشياء .

يستيقظُ في كيس ولادتهِ
الجنينُ
وترقصُ البذرةُ في
تابوتها الأخضر تحتَ التُراب
بينما الشمسُ تمشّط شعرَها

في كل نافذةِ لاحتفالِ وشيكِ أو وليمة
ويعرفُ من أغمضَ عينيهِ
معنى الفِراق. .

ثمّ إذا ما انسرحَ الضياءُ
نحو مَداهُ
مُثنياً عن فجوة اللايقينِ
الأخيرة
حيث يلدُ الظلامُ أنصابَه
وسامحاً للظلّ الخائف أن يأتي ليحيا
في ملَكوته الشفّاف ـ
تبدأُ الساعةُ بالتوحّم كامرأةِ حُبلى
وتسحرُها أشياءُ بعيدة. . .

يلتفُّ الثعبانُ على غصنه من جديدِ
ويدعونا للدخول إلى الحديقة
بينما الظلالُ تطولُ على حافّة الطريق
حيث يركعُ عابرُ السبيل قرب متاعِه
لمعجزةِ النهار الذي يغيبُ
والليلِ إذا سَجى.

الفهرس

* سيّدة الظلّ ٩
* حلم الطفولة ١٥
حلمُ أبي ١٧
نهار في كركوك ٢٠
إبنُ العامل والدُوريّ ٢٣
طفلٌ تحت جدار ٢٥
حادثٌ في قريةٍ جبليّة ٢٦
رقصةُ الديك الأثير ٢٧
أسطورة السيّاب والغِرْيَن ٣٠
يونس وبئر الأرملة ٣٣
الجدُّ يبدأ بالطواف ٣٥
مفتاحُ البيت ٣٨
* رؤيا المجرى ٤٣
كنز الشمردل ٤٥
الاسم ٤٧
بعدَ الطرُقات ٥٠
طريق الأوّل والتالي ٥١
كواكب الذبياني ٥٣
كيف يأتي الفجر «كواكب الذبياني: نصّ ثانٍ» ٥٥
لغة الفجر ٥٧
الأغنية (عندما تأتي) ٥٩
أغنية للشتاء في فندق بالحيّ اللاتيني ٦١

لقاء مع شاعر عربيّ في المهّجر ٦٤
مديح اللقاءات ٦٨
* أغنية الساعات ٧٣
وضع في زمان ومكان ٧٤
أسطورة الرعشة والريح المؤاتية ٧٦
رغبةٌ هذا مداها ٧٩
دعوة إلى النهر ٨٢
مطربة الملهى في ميناء «أنكونا» ٨٤
بار النورس (في سان فرانسيسكو) ٨٦
مرثية إلى عمر بن أبي ربيعة ٩٠
موازنة ليليّة ٩٣
العنكبوت ٩٥
الشبكة ٩٦
زيارة إلى التنّين ٩٧
* تجاسيد ١٠٣
بداية النهار ١٠٣
فطور ١٠٣
آدم ١٠٤
يونان النبي ١٠٤
خطوط بيانيّة ١٠٥
الحُب ١٠٥
أمجاد ١٠٦
الأشهر الأخيرة ١٠٦
كنت أصعد ١٠٧
لا بيت ولا حديقة ١٠٧
وقُود ١٠٨
أن تكون الحلم ١٠٨
وجهٌ رأيته ١٠٨

أغنية رجل يستيقظ في الظهيرة ١٠٨
أغنية رجل لا ينام ١٠٩
أصغرُ الأشياء ١١٠
إلى الواو، بانية الجسور الخالدة ١١٠
أريكة الملاك ١١٠
وعدٌ مقطوع ١١١
الفَلْس ١١٢
باب البيت ١١٢
مرثيّة لكأس القُدرة ١١٢
تطوّرات يوميّة ١١٢
حدثَ في طنجة ١١٣
سياسة آخر الليل ١١٣
الشاهد ١١٤
* رأيناك على الشّفرة ١١٧
إقامة في اليونان ١٢٠
ساحة أومونيا في أثينا قبل المساء ١٢٣
أمسيات نموذجية ١٢٦
شتاء في أثينا ١٢٧
الإيماضة الباقية ١٢٩
رَمْبيتيكو (موسيقى يونانية) ١٣١
الراقصة ١٣٣
النورس الذي يتبع السفينة في البحر ١٣٥
* أغنية للسائر إلى نهاية القرن ١٣٩
الوجه الرهين ١٤١
بعد القيامة (مرثية إلى الأحياء) ١٤٤
المحطة ١٤٩
ابنة البقال الحسناء ١٥١
الوجه ١٥٦

مرثية البيت ١٥٧
شجرة أمام بيت ١٥٨
مراجعات ١٥٩
عينا امرأة في التيه ١٦١
إلى المغنّي في وليمة السّحرة ١٦٤
بعد الألم ١٦٥
شعراء في المنفى ١٦٦
إلى زائر بعد القيامة ١٦٩
* عُقدة السندباد ١٧٣
كلام من البصّارة (للمولود في برج الدلو) ١٧٥
مدينة ١٧٧
إلى مغني «الكانته خوندو» (في ألمريّة بالأندلس) ١٨٠
فاس ذات الأسوار ١٨٣
مِكناس ١٨٦
ساعة التقمّصات ١٨٨
١ ـ في باريس ١٨٨
٢ ـ في ملكوت تولوز لوتريك ١٩١
الليل في نيويورك ١٩٤
* النهر ٢٠١
طبيعة الليل والنهار ٢٠٣

عرفت سركون شاعراً حقيقياً منذ اللحظة الأولى التي التقيته فيها في مقهى في منطقة القورية في كركوك في العام ١٩٥٨ وكنا لا نزال تلاميذ في المدرسة.

فاضل العزاوي

عرف الشعر العربيّ مع سركون حالة لم يعرفها هذا الشعر إلاّ في ما ندر، تلك هي حالة شاعر نذر حياته وعصب فكره وقواه الإنسانية بكاملها للشعر وحده.

كاظم جهاد

أعرف مَسْكناً واحداً لسركون بولص هو اللغة. ولعلّ هذا ما جعله في ظنّي، قبل أن ألتقيه وبعد أن التقيته، شخصاً من المعاني. لن تعرفه جيّداً مهما حاولت ولكن يسعك على الدوام أن تحاول تفسيره.

بسام حجار

سركون كان واحداً »من أولئك« الذين تقرأهم، ويبقون حاضرين معك طيلة حياتك.

اسكندر حبش

شاعر أساسي، تقرأ له بلغات عدة وهو يبرق في القصيدة، لغتهُ واضحة وأفكارهُ نُسجت بعناية لا تجد لها مثيلاً في الشائع من الشعر العربي السائد اليوم!

خالد المعالي

